ميسره الدنداوي

رواية

العنصر التاسع

الرواق للنشر والتوزيع



إليكِ... دائمًا إليكِ

إلى أبي رحمه الله... إلى أمي أطال الله عمرها

إلى إخوتي

إلى أبنائي

إلى...

كوينتن تارانتينو

«ويل للعالم إذا انحرف المتعلمون

وتبهيظ المثقفون»

محمود أبو زيد

البيضة والحجر



الفصل الأول: النهاية

بعد النهاية بست ساعات

أبواق... أبواق... أبواق

أصوات تأتي من لا مكان... ومن كل مكان

سيمفونية من الترقب والحذر والتوتر تتصاعد مخترقة حرمة الليل وقدسية صمته...

بوق متسارع النغمات يمثل سيارة كبيرة كتب عليها بخط عريض معكوس (إسعاف)

بوق بطيء النغمات يصدر نغمة كل دقيقة لسيارة دفع رباعي زرقاء.

أضواء... أضواء... أضواء

زرقاء وحمراء تُحيل الليل إلى نهار... وأضواء صفراء لسيارات رفعت شدة الإنارة في كشافاتها إلى الدرجة القصوى، صانعة احتفالا متناغمًا مع الأضواء الزرقاء والحمراء المتقلبة... وأضواء صفراء في عمدان نور واهنة تحجبها الأشجار الوارفة على جانبي الطريق.

سيارة من طراز كيا... سوداء اللون معتمة النوافذ تقترب من الجمع الغفير... أناس وقفوا بملابس منزلية بسيطة... وأناس وقفوا بثياب سهرة... وأناس وقفوا بملابس لا تعرف إن كانت ملابس أم أغطية بالية تقيهم برد هذا الشتاء القارس.

يهبط منها شاب ممشوق القوام... له شارب كث وشعر مصفف بعناية... وفي جيبه الخلفي تبرز طبنجة ميري عيار ٩ مللي بلون أسود قاتم... يقترب من الجمع وسيجارته المشتعلة تتقدمه... قامة طويلة حتى كادت تصارع الأشجار في تعاليها... وأنف روماني مستقيم يوحي بقوة كامنة فوق الشارب الكث المنمق.



يخطو خطوات أشبه بخطوات عارضي الأزياء... خطوات توحي بمعدل مرتفع من التستوستيرون... خطوات واثقة لدرجة الغرور... خطوات لا تهزها أصوات الأبواق ولا تقلب الأضواء ولا ذلك العجوز الذي يهرع نحوه مسرعًا...

- إيه يا عبد الباقي الحفلة دي؟

- ما انت عارف سكان المعادي يا بيه... محدش بيسمع صوت عربية إسعاف ولا عربية شرطة هنا... والشارع زي ما انت شايف صغير وكل الناس عـ...

- خلاص خلاص... مشي الناس دي من هنا ووسع خليني أشوف فيه إيه فوق.

عبد الباقي الأمين العجوز يومئ برأسه موافقًا... ثم يُهرول بخطوات لاهثة واهنة نحو الأفراد طالبًا منهم أن يساعدوه على تفريق ذلك الجمع المختلط... فتيات متأنقات عُدن من سهرة ما في مكان ما... ورجال بثياب منزل ورجال بثياب عمل وبواب عجوز يلحف نفسه ببطانية جيش خشنة.

- إنت البواب؟

- أيوه يا بيه.

- تعرف الراجل العجوز اللي هناك ده... أيوه الراجل اللي بيهش الناس ده شايفه.

يده على كتف العجوز ويده الأخرى تشير إلى عبد الباقي، الذي أشعل سيجارة محلية وراح يشير إلى الجنود في حزم قائد عسكري ليخلوا الشارع من أمام البناية.

- أيوه يا بيه أعرفه... الأمين عبد الباقي... ده إحنا بلديات حتى.

- حلو أوي... إنت هتقف جنبه وما تتحركش لحد ما أنزلك... عشان



أنا عايزك في كلمتين... فهمت يا...

- إسماعيل يا بيه... اسمي إسماعيل.

- عاشت الأسامي يا أبو السباع... تستنى هنا بقى زي ما قولتلك وما تتحركش خالص.

ثم ربت على كتفه وألقى السيجارة التي انتهكت أسنانه فلترها الملون... وداسها بحذاء مرتفع النعل... ثم سعل سعلة يحسم بها أمره وهو يخطو ناحية المبنى.

عيناه الخبيرتان التقطتا اللوحة الزرقاء فوق دكة خشبية بالية... عليها كوب شاي فرغ نصفه وعلبة سجائر بيضاء رسم عليها تمثال نصفي لسيدة مصر الأولى، سليلة آل بطليموس.

يصعد درجات السلم وسط جلبة السكان أمام أبواب شققهم... هناك في الطابق الثالث وضع شريط أصفر عريض أمام باب خشبي... عيناه تجوبان الطابق الذي تحتله شقتان فقط... خاطرة حالمة تجوب رأسه بأن ينال شقة مثل هذه قريبًا، في بناية يحتل طابقها شقتان فقط بدلا من خمس شقق!

ينظر في سخرية إلى الشريط الأصفر وهو يهمس لنفسه:

- الشغل الأمريكاني ده بتاع مصطفى السعدني.

- إنت بتنده عليّ يا باسل باشا؟

جفلت كل خلية من خلاياه واهتزت... إلا أن غلافه الجلدي وأطرافه القوية لم تفقد ترابطها... التفت إلى الجسد الذي يزن خمسة وأربعين كيلوجراما فوق المئة... النظارات الصغيرة التي تثير ضحكك مع عدم تناسقها فوق وجه بدين حليق، يشبه وجوه الأطفال.

- إنت مركب ميكروفونات تجسس هنا ولا إيه؟



- ما انت عارف يا باشا... طول ما النظر على قده، الودن بتبقى ميكروفون لوحدها.

أشار بإصبعه ناحية الشريط الأصفر وقال ساخرا:

- وايه اللي انت عامله ده... إنت في سي إس آي نيويورك؟

- والله ده اللي علموهولنا في أمريكا لما الوزارة بعتتنا هناك.

- وما علموكش في أمريكا إنك ما تلوثش مسرح الجريمة يا دكتور؟

ثم انحنى بجذعه ناحية حذاء مصطفى، الذي يزيد مقاسه على الستة وأربعين سنتيمترا بقليل، وتناول ورقة بلاستيكية كانت عالقة في طرفه، ورفعها نحو عدسات نظارته.

- مش ده برضه استيكر بتاع بصمات؟

- لا ده غلاف الفولية إلى كنت باكلها... إنت عارفني... أنا أحب الفولية أوي.

تناول الورقة منه وألقاها في سلة مهملات قريبة من باب الشقة المقابلة، ثم تقدم ناحية الشريط الأصفر ورفع طرفه، ليسمح للباشا بالعبور معه وهو يغلقه من جديد.

غرفة صالة أنيقة بها خمس قطع من الأثاث فقط لا غير... طاولة وأربع كراسي... وصورة لرجل مقطب الجبين يغطي طرفها شريط أسود... وممر صغير تنيره سهراية صفراء مزعجة، يقود إلى أربعة أبواب فُتح أحدها وبقيت الثلاثة الأخرى مغلقة يتقدمها شريط أصفر آخر... الباب مفتوح على مصراعيه... وآثار عنف على القفل تشي بأن أحدهم حطمه حتى يفتحه.

يرفع باسل يده نحو مصطفى ليناوله قفازا مطاطيًا، ارتداه في يده اليسرى... وراح يمر به على طرف الباب وطرف القفل.



- مكسور من برة.

- آه رجالتك كسروه عشان يفتحوه... من ضمن إجراءاتهم في الحفاظ على سلامة مسرح الجريمة.

نبرة ساخرة تعلو من صوت مصطفى الخشن... نبرة قابلها بنظرة جانبية... ثم مرر أصابعه الطويلة على أطراف الباب الخشبي... لا بروزات... الباب كما لو كان قد صُنع لتوه، عدا أن القفل وبيت القفل قد خربا تمامًا.

يخطو نحو أرضية الحمام الجافة... أرضية صُنعت من سيراميك رخيص يشبه ما صنعت منه الحوائط... لون رمادي فاتح وحلية من الزهور تزين منتصف الحائط... منتصف الحائط تمامًا.

- مركّب الوَزَرة في نص الحيطة بالظبط.

- المرحوم كان مرتب أوي الحقيقة... لدرجة إننا لما دخلنا الشقة شكينا إن العساكر بتخرف لما قالوا إن فيه حد ميت هنا.

- مش كل الميتين بيعملوا دوشة وهم بيموتوا يا درش... وأنا أعز الميتين اللي بيموتوا وهم ساكتين.

الجثة تتوسط أرضية الحمام... مغطاة بغلاف أسود مما تُغطى به الجثث.

ينظر باسل إلى مصطفى فيومئ برأسه... يقترب نحوه وبيده اليسرى يزيح الغطاء على أنغام كلمات مصطفى:

- أنصحك لو كنت اتعشيت ما تفتحوش بعشم كده.

- أنا ما بتعشاش.

قالها من دون أن يلتفت... ويده ترفع الغطاء لتقع عيناه على المنظر.

- ده حمض.



قالها من دون أن يرمش له جفن... من دون أن تختلج عضلة في وجهه.

- اسم الله عليك يا باشا.

- حمض إيه اللي ياكل بقع في الجلد كده؟

- هيدروفلوريك.

أزاح المزيد مستكشفًا... الجسد عار مليء بالبقع المحترقة... بقعة حرقت مقدمة شعر رأسه... بقعة بين عينيه... بقعة أسفل ذقنه في مكان كانت تبرز منه تفاحة آدم يومًا... بقعة فوق قلبه... بقعة فوق بطنه... بقعة فوق عضوه التناسلي... بقعتان تتوسطان الركبة... قُتل بعناية فائقة بالحمض الذي...

- هو الباب كان مقفول من جوة؟

- الحقيقة آه.

- ومفيش غير الشباك ده بس اللي هنا؟

- آه اللي كان هنا.

- يعني فيه عفريت بقى دخل معاه حمض هيدروفلورين، وقلعه هدومه وقعد ينقطله في الحمض كده على أماكن أماكن، وبعدين سابه لحد ما مات بصدمة عصبية وراح هوب متبخر؟

- تفسير مش بطال الصراحة يا باسل بيه.

باسل يقترب من النافذة محطمَة الزجاج... نافذة بلا عمدان حديدية، لا تتعدى أبعادها العشرين سنتيمترا طولا والعشرين عرضًا... يقف أسفلها ثم يدير جسده إلى الناحية المقابلة لها... فقط ليجد وجهه يطل عليه من مرآة الحمام.

نظر لوجهه الذي حرص على حلاقته صباحًا... وأبدى إعجابه لنفسه



على الصرامة المرسومة بحرفية فوق ملامحه... بينما مصطفى يمد يده في جيبه مُخرجًا قطعة من حلوى الفولية مغلفة بغلاف بلاستيكي... يخرجها ويقضم قضمة ذات صوت.

متجاهلا صوت قضم الفولية، يرفع يده ممرًا إياها فوق المتبقي من زجاج النافذة... سنتيمترات قليلة من الزجاج هي كل ما تبقى، والباقي مستقر كقطع صغيرة في القناة الصغيرة المصنوعة من الألمونيوم المغطى بالمطاط الأسود المتآكل.

- هو ده بس اللي باقي من الإزاز؟

- بالظبط.

- فين بقية المكسور؟

- ساعة لما دخلنا ما كانش في غير ده.

- وأكيد طبعا العساكر مش هينضفوا الإزاز ويلموه لحد ما انتم تشرفوا!

بفم مليء بالفولية يومئ برأسه... بينما حاجبا باسل على وشك التصادم في حادث مروع.

- بمعنى آخر زي ما بيقولوا... الإزاز ده ما اتكسرش... زي ما يكون جاله سرطان ووقع حتت جوه المجرى.

- بينجو.

نظر له بملامح جامدة... وهبط من جديد بجسده جالسًا القرفصاء بجوار الجثة... انحنى بجذعه وراح يمسح بعينيه الأرضية الملساء حولها... لا آثار جر... لا آثار تحريك... لا آثار لأي حمض هنا أو هناك.

- هو الهيدروفلوريك بيدوب السيراميك؟



ـ آه، ليه؟

ـ أصل السيراميك زي الفل، زي ما يكون متركب امبارح.

ـ بينجو كمان مرة.

ينهض وملامح الاستنكار تعلن الثورة على وجهه... الحقيقة أنه هو من سمح لها بالخروج على عقله حتى يراها مصطفى.

ـ إيه يا مصطفى... هتقعد تقولّي بينجو بينجو... ما تنطق بكلمة عدلة في ليلتك دي.

ـ اللي انت بتفكر فيه يا باشا هو اللي أنا فكرت فيه بالظبط... الموضوع مش هيخرج عن حاجتين... يا إما حد دخل الحمام هنا بيه وهو متخدر مثلا ـ وده اللي هيكشفه الطبيب الشرعي ـ وبقّعه بنقط الحمض في الأماكن دي بالذات... وبعدين بنفس الحمض دوب الإزاز وهرب من الشباك الحلو ده... وده صعب جدا، إلا لو كان اللي عمل كده قزم أبعاد جسمه تخرجه من عشرين سنتي... يا إما...

صمت وهو يقضم قضمة الفولية الأخيرة وباسل يشير له بيده:

ـ يا إما إيه؟

ـ يا إما هو بقّع نفسه بالحمض بنفسه... ببساطة انتحر يعني.

أومأ باسل برأسه غير مقتنع... وعيناه تمسحان المكان بنظرات سريعة.

ـ ألا قولّي صحيح يا باسل باشا... إنتم عرفتم إزاي؟

ـ مكالمة تليفون من فاعل خير... جو قديم أوي.

شبح ابتسامة تم صرفه كالمعتاد من فوق ملامحه الصلبة.

ـ قولّي يا مصطفى... الجثة رايحة لمين في الطب الشرعي؟



- مش عارف... هو غالبا إبراهيم الشرقاوي أو علاء زكي؟

يخلع قفازه المطاطي ويناوله لمصطفى ليلقيه في كيس بلاستيكي... ويخرج من الحمام بخطوات بطيئة وهو يقلب الأرقام فوق شاشة هاتفه المحمول... حتى استقرت عزيمته عند رقم يعرفه جيدا...

- صباح الخير يا معالي الباشا... أنا عارف إن جنابك لسه صاحي فا قولت أكلم حضرتك... ربنا يكون في العون معالي الباشا، عندنا قضية كده مكعبلة حبتين، وكنا عايزين خدمة من حضرتك... لا يا فندم الموضوع بسيط أوي.

ثم صمت وهو ينظر نحو الصورة المعلقة على حائط الصالة... وعقله يخبره كيف أن الشبه كبير بين الوجه المشوه بالحمض، وصاحب الوجه ذي الجبين المقتضب الذي ينظر له من خلف إطار الصورة.

- كنا عايزين الدكتور الشرعي بتاع قضية المنيل يا فندم هو اللي يشرح... أيوه أنا عارف إنه معاش خلاص، بس محدش هيعرف يشرّح الجثة دي غيره... ما نتحرمش منك يا فندم... سلامنا للبشوات الصغيرين.

أغلق الخط ونظر إلى الصورة ليرى انعكاس مصطفى في طرف الزجاج... ونظرات على وجهه تبدو منها الدهشة.

- إنت تقصد...

- أيوه هو... محدش غيره هيعرف يجيب قرارها... يا يقولّنا إن عفريت اللي عمل كده يا يقولّنا إنه انتحر.

ثم نظر من جديد إلى الصورة وابتسامة شاحبة على وجهه.

- مش كنت تربي ابنك كويس يا حاج!





منهك هو كقطار خرج من أسوان إلى القاهرة وتوقف بكل مركز ومدينة في طريقه... يرتدي قفازات مطاطية سوداء ونظارته تسقط على قصبة أنفه، فيعيدها إلى مكانها بطرف كوعه... البالطو الأبيض صار ملوثًا ببعض بقع الدماء، وعلى طاولة الفحص تستقر جثة الشاب الذي تبقع ببقع الحمض الحارق المركز.

ينظر عبر طاولة الفحص إلى فتاة نحيلة كسيخ الشواء... ترتدي معطفًا أبيض، وتراقبه في إجلال من خلف نظارة عريضة تملأ نصف وجهها النحيل المائل للسمرة... وشعرها الملتف معقوص خلف رأسها.

ـ سجلي اللي هقوله يا إيرين.

ـ حاضر يا دكتور.

تُخرج من جيبها هاتفًا محمولا تداعب شاشته بأصابع كلاعب بيانو... وأظفارها التي تكسر أغلبها تمر فوق زر التسجيل الأحمر... ثم تُعدل من وضع نظارتها، وهي تنظر له بعينين ملؤهما الوله بما يفعله العبقري ذو الشعر الأشيب والسيجارة السوبر المتدلية من فمه.

ـ الحالة لذكر أبيض في الثلاثينات... الطول ١٨٤ سم والوزن ٧٤ كجم... مصاب بصدمة عصبية حادة أدت للوفاة حسب التشخيص المبدئي... بقع احتراق في الجلد من أثر احتكاك بحمض هيدروفلوريك مركز في أعلى الأنف بين العينين... أسفل الرقبة... الجهة اليسرى من الصدر... أعلى الصرة بنحو ٤ سم... أعلى العضو التناسلي بـ ١ سم... أعلى مفصل الركبة اليمنى بـ ٥ سم، وخلف مفصل الركبة اليسرى بـ٣ سم... توقيت الترقيع ببقع الحمض تقريبًا واحد من درجة احتراق الجلد... توقف القلب كان تقريبًا بعد احتراق البقع الحمضية بخمس دقائق... مفيش آثار لعنف أو سحقات



أو صدمات إلا على مفصل الركبة اليمنى نتيجة الارتطام بالأرض... في انتظار تحليل المخدرات والسموم وأي مواد كيماوية يمكن أن تكون موجودة في دم المتوفى.

ثم أشار لها بيده أن أوقفي التسجيل، وخلع قفازيه المطاطيين وألقاهما في سلة مهملات تحوي بقايا مماثلة.

- يلّا صوري الحالة كام صورة كويسين.

- أصورها كلها يا دكتور؟

رفع عينيه الرماديتين الباردتين نحوها... وأرسل لها رسالة قصيرة تلقتها عيناها القابعتان خلف نظارتها العريضة... لكن الاستقبال لم يكن يعمل جيدا على ما يبدو.

- كلها يا إيرين.

- حتى النقط اللي عند الـ...

- بصي يا إيرين... أنا هقولّك كلمتين يا بنتي تحطيهم حلقة في ودنك... لو كنتي عايزة تبقي طبيبة شرعية لازم أول ما تعدي من الباب ده تنسي إنك أنثى... إنتي هنا طبيب شرعي مكلف بشغل لازم يعمله... أي اعتبارات تانية لازم تقلعيها من مخك وترميها في السلة الكبيرة اللي هناك دي، عشان تطلع عالمحرقة وتتحرق مع الجوانتيات والسرنجات الفاضية... مفهوم؟

أومأت برأسها وهي تعدل من وضع نظارتها، والخجل يحاول جاهدا ألا يُسيل الدم من وجنتيها... فتزيح خصلة من شعرها الملتوي وتبدأ في التصوير بهاتفها المتطور.

ابتسامة أبوية سرقت لمحة من وجهه ثم اختفت من جديد خلفه... وهو يلتفت متجها إلى ركن الغرفة.

- خلي سعيد يعملّي شاي.



ـ عم سعيد تعيش انت يا دكتور.

ثقل مفاجئ دب في مفاصله الخشنة... وأسى على ملامحه لا تراه إيرين... لكن كل أرقام أبواب الثلاجات وعمدان طاولات الفحص راحت تربت على روحه مواسية إياه.

ـ الله يرحمه... مفيش حاجة بتفضل على حالها.

ـ كلام حضرتك صح.

ـ طيب خلي أي حد جه هنا مكان سعيد يجيبلي قهوة...

ـ مش كان شاي يا دكتور.

ـ وغيرت رأيي يا إيرين... عايز قهوة، وسادة كمان... أنا حر يا ستي.

ثم استند على طاولة حديدية في ركن الغرفة تمنحه بعضًا من الأمان، قبل أن يلتف بجسده ويهوي على المقعد رافضًا أن يبوح بآلام مفاصله المجهدة.

جابت عيناه محتويات الغرفة... ونظرة حالمة حزينة تحتل مقلتيه... بينما يداه تتحسسان الطاولة لتصطدما بقفل صغير على أحد الأدراج.

ـ أنا طلبت لحضرتك القهوة.

عيناه ترتفعان بتصوير بطيء نحو إيرين وتحدقان فيها بلا هدف... غفوة أصابته لثوان أفاق منها على صوت إيرين، الذي انتزعه من عالم كان يمني نفسه بأن يبقى فيه حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ـ هو القفل ده موجود من إمتى؟

ـ أصل لما حضرتك طلعت معاش... الدكتور إبراهيم بقى هو...

ـ وهو اللي حط القفل على الدرج؟

ـ بيقول إن فيه حاجات مهمة وهو ما بيحبش حد يطلع عليها.



شاب في مقتبل الثلاثين يتنحنح على باب الغرفة... فتلتفت له إيرين ثم تتناول منه صينية معدنية عليها كوب قهوة وكوب ماء... تضعهما فوق الطاولة.

- هو ده اللي جابوه مكان سعيد؟

- آه يا دكتور... شاب ابن حلال وبيجري على عيلة خمس أنفار... رغم إن عنده بتاع تلاتين أو واحد وتلاتين سنة، إلا أنه هو اللي شايل عيلته من وهو سبعتاشر سنة... ده خريج تجارة على فكرة، بس مالقاش شغل.

أومأ برأسه متفهمًا، ورفع كوب القهوة إلى فمه يتذوقها وهو يبدي استحسانًا مختلطًا بأسى.

- عام الشباب بقى.

ثم التفت إلى إيرين وأشار لها أن تجلس... لتسحب مقعدًا معدنيًا وتجلس أمامه في إجلال.

لا يتذكر كيف دخلت هذه الفتاة النحيلة المُجدة حياته... ربما كان ذلك في شهره الأخير قبل المعاش... كانت طالبة في سنة الامتياز قررت بمحض إرادتها الحرة أن تكون له كظله... ظلت تلاحقه خمسة أيام كاملة، محاولة إقناعه بأنها على استعداد أن تبيع روحها للشيطان حتى تتعلم منه كيف يكون الطب الشرعي... هي تمتلك اتصالات لا بأس بها في المصلحة وتعرف أنها ستكون يومًا ما طبيبة شرعية... أب أو عم يعرف صديقًا سوف يتدبر الأمر... فقط قالوا لها إن ذلك العجوز القابع في مشرحة قصر العيني هو نبي الطب الشرعي، وإن عليها أن تتبعه... لتتحول من طالبة علم مجدة إلى سكرتيرة شخصية... إلى ابنة له تمنحه الدواء وتوصله من بيته إلى طبيبه الخاص كل شهر، بل وتدبر له الدواء الناقص ونادر الوجود... لتتحول إيرين في ظرف عام من طفلة لحوح يهشها رجل كبير إلى طائر زقزاق،



سمح له هو فقط أن يضع رأسه بين فكي التمساح العجوز.

- صورتي الحالة؟

- تمام حضرتك.

- وإيه رأيك؟

صمت غلف المكان لدقيقة كاملة... صمت قطعه صوت رشفة القهوة ونحنحة إيرين التي...

- إيه يا بنتي...

- ما هو أنا مش هقول رأي بعد رأي حضرتك.

- تبقي إمعة وعديمة الشخصية.

ثم ترك كوب القهوة ونظر في عينيها نظرة صارمة، كادت تطيح بها من فوق المقعد.

- أنا مش إله ولا نبي زي ما فهموكي قبل ما تدخلي من الباب ده... أنا بني آدم عندي شوية معلومات هنا في راسي بستخدمها في معادلات تطلعلي نتايج... إنتي كمان لازم يكون عندك ده... معلومات تطلعلك نتايج توصلك لحقايق... لازم يكون ليكي رأيك حتى ولو كان معارض لرأي الدنيا كلها طالما انتي شايفاه صح... وإلا هتبقي مجرد معزة ماشية في قطيع معيز مستنية دورها تندبح...

أومأت برأسها من جديد والرعشة تغزو مفاصلها وأطراف شفتيها...

- ودلوقتي نرجع لموضوعنا... رأيك إيه بقى؟

- رأيي إنه مقتول يا فندم.

- بناء على إيه؟

- الإصابة اللي في ركبته الشمال من ورا دي صعب فيزيائيا



إحداثها...

- يجوز... ليه لأ... وبالنسبة لباقي الإصابات؟

- لو زي ما أنا شوفت كده من الصور...

ثم أخرجت هاتفها المحمول وفتحت معرض الصور وراحت تقلب فيها، ثم ناولته الهاتف:

- الإصابات واضح إنها تمت في أوقات متقاربة جدا إذا ما كانش نفس الوقت... الأنسجة المحروقة من الجلد نحو نقطة التماس تقريبا... متعرضة لنفس الأضرار من ناحية حرق النسيج... وده بيقول إن وسيلة تنقيط الحمض أو احتكاكه بالجلد واحدة تقريبا... غير إن تسرب الحمض على الجلد جاي تقريبًا بنفس التركيز اللازم لحرق الجلد... وزي ما حضرتك علمتنا إن حمض الهيدروفلوريك ما بيبدأش التفاعل إلا لما يغطي ١٦٠ ملم مربع من مساحة نقطة التماس مع الجلد... ولو بصينا على المساحات اللي تقريبا كلها في الحدود دي دائريًا يبقى الإصابات كلها جت من مصدر واحد، والشخص اللي عمل كده يا فندم غالبًا كان مسيطر عليه بشكل ما... خدره مثلا أو خلاه في حالة شلل جزئي عشان ينقط الحمض بالدقة دي، زي الحرق بالسيجارة كده اللي بنشوفه في الأفلام... أو...

ثم صمتت وسرحت بعينيها في وجهه العجوز، وعيناها تراقبان دخان سيجارته المتصاعد إلى السقف في رتابة...

- إيرين؟

- حضرتك قولتلي إنهم لقوه على الأرض عريان والحمض آكل الجلد فعلا.

- آه.

- ومفيش أي أثر لأكل الحمض للسيراميك أو خدوش فيه.



ـ كأنه متركب بعد ما مات.

سرحت عيناها من جديد في سماء الحجرة، متتبعة خيط الدخان الذي قطعه بنفس قوي سحبه من سيجارته السوبر... ثم نظرت في وجهه ليشير لها بيده إشارة فهمتها كأنها شفرة سرية... فأخرجت هاتفًا محمولا من جيبها منحته له ليقلب فيه، رافعًا نظارته حتى تمنحه عيناه قليلا من نعمة البصر لغرض الرؤية.

ـ هي الساعة كام دلوقتي في دبي.

ـ تقريبًا حداشر صباحًا.

ـ كويس أوي.

ثم رفع الهاتف البدائي إلى أذنه وراح يستمع إلى الرنات الطويلة، حتى جاء صوت مرتفع من سماعة الهاتف.

ـ Good morning... may I talk to Professor Saied please... I am Professor Allam

قالها بإنجليزية سليمة النطق والتكوين واللكنة... كأنه لورد إنجليزي أزرق الدماء ولد بين جنبات قصر باكينجهام.

لحظات راح يراقب فيها سيجارته المشتعلة، حتى جاء الصوت المرح عبر الأثير.

ـ إزيك يا آمال... أنا الحمد لله كويس... كنت عايز منك خدمة بسيطة... خدمة بسيطة عشان صديقك العجوز أحمد علام... الأول قوليلي... أخبارك إيه في الفارماكولوجي... جميل أوي... بصي يا ستي...

* * *

قبل النهاية بأحد عشر شهرًا



أجلس في طرف المكان أمام شاشة يبلغ حجمها أربع عشرة بوصة لكمبيوتر محمول... أمسح بعيني كلمات أرسلت لي من بعض من يعملون معي في إدارة وتحرير موقع إلكتروني إخباري، ينشر أخبارا من طراز (انظر ماذا وجدوا عند فتح دولاب سنية سوست بعد القبض عليها) و(خمس معلومات لا تعرفها عن رمضان البرنس... الرابعة ستدهشك)... وأحك شعر ذقني النابت من إهمالي الحلاقة، محاولا تقبل الكلمات التي نظمها مجموعة ممن يدعون أنهم صحفيون، وأنهم ينشرون محتوى مختلفًا... كما يقول شعار الموقع!

مقال عن نهر لا يسري إلى البحر يوجد في الهند... ومقال عن اكتشاف سيحير علماء الكرة الأرضية عن عسر الهضم... ومقال يجزم بأن اللحم الذي نتناوله ليس إلا لحم حمير منذ قديم الأزل... وذلك المقال المترجم عن الموسم الخامس والعشرين لمسلسل تليفزيوني أبطاله شاب وسيم وامرأة جميلة، لا يشاهده إلا التافهون من المراهقات وربات البيوت الملولات!

أملي عيني بصياغة ركيكة وغلطات إملائية من عينة (ازاقه الويل) و(الزهول المتبق) و(التذين بالورود) والتي قد تقودني إلى الإصابة بجلطة في شراييني المجهدة من القهوة والتدخين.

مالي أنا وكل هذا الهراء؟

أعتقد أن يومًا أغبر لا شمس له ولا قمر كان يوم موافقتي على تولي هذه الوظيفة... لأنتقل من خانة الصحافة الحقيقية الدسمة إلى صحافة ماسخة مملة لا طعم لها ولا لون.

لم أكن أتوقع ذلك في الحقيقة عندما اتخذت قراري بالموافقة... لم أكن أتوقع أن أسقط في شرك الهراء والتفاهة وانعدام المهنية، والسعي خلف عدد ضغطات الإعجاب وعدد المشاركات على فيسبوك.



كنت أظن أنني مقبل على خطوة تجعلني من اللاحقين بركب صحافة المستقبل... إلا أني وجدت نفسي أسقط في شرك صحافة يسميها كل عاقل لبيب (صحافة الترافيك).

مالي أنا وما وجدوه في دولاب سنية سوستة، أو بعلاقات البرنس الزوجية، أو بلون حقيبة هيفاء وهبي، أو الفيديو الجديد الذي بثته فيفي عبده على الإنستجرام؟

أسرح بعقلي لأتذكر أيامًا لن تعود... أيام كنت أحمل حقيبتي وتبغي ونظارتي، وعرفة المصور يتقافز خلفي لنلتقط صورًا لجثة أو موقع حدث أو مسرح جريمة... إلى معلومات ألتقطها من هنا ومن هناك... إلى سبق تقودني إليه حاستي السابعة أو الثامنة... إلى تحقيقات وتقارير طب شرعي... إلى انفرادات حقيقية تُنشر على ورق مطبوع لا يهتم فقط بعدد ضغطات الإعجاب ونسبة المشاركة.

أتذكر أيام معاركي مع ماهر الرفاعي... وأيام معاركي مع من سبقوه في رئاسة تحرير جريدة كانت يومًا توزع في ستة أحياء في القاهرة، والآن يغطي توزيعها العالم... جريدة كنت يوما أنا نجمها الأول، ثم أصبحتُ الآن لا أقوى على اشتراء نسخة منها، لأني لا أستطيع أن أرى اسم ذلك الأفاق مذيلا بوصف رئيس التحرير.

حتى الأفاق كان مهنيًا... كان ينافق بحرفية... ويزيف بمهنية... ويصيب بقلمه ذممًا وضمائر... ويلقي أحجارًا في وجه من يريد دون أن يراه... ويحطم شركات ويهدم مؤسسات بلا قطرة دم واحدة تلوث ثوبه الأسود القاتم.

حتى هذا الأفاق أصبح يهتم بعدد ضغطات الإعجاب ونسبة المشاركة... فقط ليحول هذا الكيان إلى مهرج آخر في سيرك الترافيك!

أمسك بهاتفي المحمول متصلا برقم أتصل به مرة كل أول شهر،



لأحصل على شيك من خمسة أرقام هي مرتبي المغري الذي كان له الكلمة الأولى في قبولي لهذه المهنة - أو لنقل المهن - فأنا رئيس التحرير ومدير التحرير ومنسق التحرير والمشرف العام والمصحح اللغوي وكاتب مقال أسبوعي، وقد يضاف لها يومًا ساعي البريد الإلكتروني، لولا تلك الفتاة المحجبة ذات الوجه الصبوح والعينين الواسعتين التي تتقدم نحوي من باب الكافيتيريا الزجاجي.

أشير لها بطرف إصبعي أن تجلس وتصمت... إشارة حفظتها وعرفتها منذ أول يوم عملت فيه معي في هذا الموقع حتى اليوم.

الصوت الخشن الجهوري يصطدم بأذني عبر موجات الجيل الثالث.

- صباح الخير يا مجدي بيه... إزيك... لا شيك إيه اللي ما اتصرفش... الشيك تمام والحمد لله... أنا بس كنت عايز أعمل معاك اجتماع كده عشان نناقش موضوع مهم أوي... مش فاضي؟ طيب هتفضى امتى... ألخص إزاي يعني يا مجدي بيه... أنا صحفي آه بس عمر ما التلخيص كان من سمات الصحفي... طيب طيب من غير فلسفة ومن غير تطويل عشان وقتك الثمين أنا... حاضر ومن غير تريقة وسخرية واستفزاز كمان... حلو كده؟ أنا محتاج أعمل تعديل شامل في الموقع... بصراحة كده موضوع الأخبار الخفيفة والحقائق المريعة ده مش قادر أبلعه... أنا بقالي ست شهور ماسك إدارة التحرير وبحاول أبلعه ومش قادر... عايز إيه؟ بالسرعة دي من غير مناقشة كده... لا لا خلاص قلبك أبيض... أنا هقولّك ببساطة عايز إيه... أنا عايز أغير شكل الموقع ده لحاجة نظيفة ومحترمة... آه حاجة بتنشر أخبار ومقالات وتحقيقات صحفية كده تنفع الناس وتعمل شغل محترم وتسمّع في الأوسـ... إيه اللي مانعني؟ مش عارف أنا افتكرت إنك موافق على اللي بيحصل... أيوه انت مديني سلطة كاملة بس... طيب خلاص اتفقنا أنا هشتغل عليه من النهارده... فاهم فاهم... مفيش مواضيع صادمة مفيش



انتقاد لفوق ومفيش لعب على الطائفية... فهمت كل حاجة... متشكرين يا مجدي باشا... تمام تمام... أوك خلاص... يلا أشوفك قريبًا.

أغلق الخط وأرفع عيني إلى وجه سمر... عيناها تلمعان ببريق عيني طفلة صغيرة منحتها أمها حق دخول المطبخ لتصنع لها شايا... أضع الهاتف إلى جواري.

- وافق مش كده؟

- وافق يا ستي... ولو إني متوقع إن رأيه هيتغير بعد أسبوع بالظبط... بس ساعتها براحته... استقالة وسلام عليكم وأرجع أقعد عالقهوة في القلعة، ألعب طاولة وأشيش واستلف من خالي اللي في الخليج قرشين اشتري بيهم عربية فول وأنافس بيها أبو رامي.

- وربنا انت مسخرة.

تضحك وهي تحاول كتم ضحكتها المجلجلة فيهتز جسدها نصف الممتلئ... ثم تُخرج من حقيبتها هاتفها المحمول كبير الحجم والشاشة، وهي تفتح قفله ببصمة إصبعها لتريني صورة لشاب في أواسط ثلاثيناته.

- مين ده؟

- ده العريس الجديد... آخر مجايب ماما.

- اسمه إيه؟

- خالد ولا إبراهيم ولا محمد ولا أيا كان... كلهم بيجوا يشربوا شاي وياكلوا جاتوه ويعرضوا بضاعتهم ويتفرجوا على بضاعتي، وبعدين يتكلوا على الله... اللي يقول أصلها مليانة شوية، واللي يقول أصلها قصيرة شوية، واللي يقول أصلها جريئة شوية... وبعدين يمشي وتتعاد الحكاية.



أبتسم كاشفًا عن صف أسنان مصفر من أثر القهوة الداكنة القوية التي أعبها منذ الصباح... ثم ألف شاشة الكمبيوتر المحمول ناحيتها معلنا أن وقت العمل قد حان... تنظر إلى الشاشة غير فاهمة:

- إيه ده؟

- أنا اللي عايز أسالك إيه ده.

- مقالات الأسبوع ده.

- إنتي بتسمي الخرا ده مقالات؟

تقلص وجهها من أثر الكلمة... ثم راحت تقلب الصفحات بإصبع مطلي ظفره بطلاء بني وأنا أتابع:

- مقالة عن فيديو زعبولة المزعبلة... وخمس حقائق عن سيد البرنس... ومقالة عن الحياة الشخصية لمحسن سلكاوي... ولا الأخرانية دي بقى... مقالة حوادث ما كنتش بكتب زيها وأنا صحفي مبتدئ من ١٥ سنة... حاجة كده تقلب البطن... أنا كنت داخل أرجّع في الحمام لولا إنك دخلتي عليا.

- خلاص بقى كفاية كلام عن الخرا والترجيع والقرف ده... قولّي اللي انت عايزه وأنا خدامتك يا بيه.

- تعجبيني... أنا عايزك بقى تبعتي أي ميلات لكل اللي بعتوا المقالات دي تشكريهم، وتقوليلهم ببساطة إن رئيس التحرير جاب اللي في بطنه لما قراها، وإننا بنعتذر عن نشرها لتفاهة المحتوى.

- كده خبط لزق من غير مقدمات.

- بالظبط.

تقلب شفتيها لتذوق مرارة الرد، ثم تتابع دون أن تنظر إليّ:

- وإيه كمان؟



- تتصلي بالواد اللي كتب المقالة الأخرانية دي... وتقوليله أنا عايز أعمل معاه تعاقد يكتبلي مقالة أسبوعية، عشان ده هو الحسنة الوحيدة في سلسلة الطرش دي.

راحت تدون الملاحظات في مفكرة صغيرة، رُسم على غلافها صورة لشخصية من كارتون المنيونز... وهي تهمهم خلفي حتى لا تنسى.

- وبعدين؟

- خلصتي اللي بتكتبيه؟

- آه، فيه حاجة كمان؟

- اعملي لنفسك زيادة ١٥٪ في مرتبك... عشان من النهارده انتي مستشار التحرير بتاع الموقع... بالإضافة لشغلك يعني.

- آه، قصدك البوسطجي الإلكتروني.

- عليكي نور... آه وقبل ما أنسى... شوفيلي واد ديزاينر كويس وعلى قد الإيد يعملّنا تصميم كده للواجهة واللوجو... وكلمي محمود مهدي يعملّنا ريفيو مكتوب كده كل أسبوعين على فيلم من الأفلام الجديدة... آه وما تنسيش حاجة مهمة جدا... الموقع يتقفل مؤقتًا ويتحط عليه يافطة بالبنط العريض... انتظرونا بعد تجديد المحتوى... وكلمتين من بتوع الدعاية دول.

راحت تكتب وتشخبط حتى تأكدت من أنها تنقل كل ما قلته بشفرة موريس على الورق، حتى لا تنسى شيئًا.

- حاجة تانية؟

- وشوفي خبير خطوط عشان يفك الطلاسم اللي كتبتيها في لمفكرة دي.

- حاجة تانية بدون استظراف؟



ـ اتنين قهوة مظبوطة على حسابي.

ابتسمتْ وهي تنظر لي مغلقة المفكرة وواضعة إياها في حقيبتها العملاقة، ثم أشارت للنادل الذي لبى طلبها متأففًا من مظهري الموحي بشخصية عيسوية ـ نسبة إلى الفنان البوهيمي عيسوي ـ بينما تعود للالتفات إليّ.

كيف عرفتُ سمر... لا أدري... ربما هي من عرفتني... كنت في بداية عملي بهذا الموقع أتواصل معها فقط بوسائل التواصل التي أكرهها... بداية مما يطلقون عليه الواتس وحتى ما يطلقون عليه الماسنجر... وهي أسماء ما أنزل الله بها من سلطان... ما إن أسمع أحدهم يسألني عليها حتى أتحسس هاتفي المحمول الذي سيصبح عرضة لكل من هب ودب، إذا سمحت لهذه الأسماء أن تغزوه.

يومًا ما طلبت منها أن نعقد مقابلة لنناقش أمرا ما... وجدتها تتصل بي وسمعت صوتها الشقي المفعم بالحيوية... تذكرني أحيانًا بولاء حينما كانت تتأدب ـ وهذا كان نادرا ما يحدث ـ وعندما قابلتها صدمني شكلها الذي لم أرسم في خيالي نصفه... كنت أظنها فتاة بوهيمية منكوشة الشعر ترتدي صندلا وبنطالا واسعا من الجينز، وتعقص شعرها خلف مؤخرة رأسها بقلم رصاص... كل كلامها وأحاديثها معي كانت توحي بذلك... إلا أني رأيت فتاة محجبة من أسرة متوسطة مهندمة الثياب رقيقة الملامح... ومن جديد صدمتني حقيقة أني بعد عشرين عامًا من الحياة في الشارع، ما زلت أصنف الناس بناء على كلماتهم وأحاديثهم وموضوعاتهم.

يا لي من وغد ضيق الأفق.

ـ ممكن أطلب منك طلب؟

ـ أكيد طبعًا.

ـ ممكن أعمل موضوع في أول عدد من الموقع بعد التطوير.



ـ موضوع عن إيه؟

وصلت القهوة على الطاولة... فصمتتْ وهي تحبس أنفاسها في حركة تكررها كثيرا كلما جاءنا... وما إن انصرف حتى همت بالكلام، إلا أن صوت رنة مرتفعة أتى من هاتفها المحمول... فتناولته متناسية كل شيء وراحت تهمهم مع من يحادثها... ثم وضعت يدها لتغطي فتحة الميكروفون.

ـ إنت قفلت موبايلك؟

ـ غالبا فصل شحن... ليه؟

ـ فيه حد معايا عالخط عايزك... والحقيقة ما اعرفش هي عرفت إن انت معايا منين!

ـ طب ناوليني الموبايل كده.

تناولتُ منها الهاتف... وما إن وضعته على أذني حتى جاءني الصوت الذي لم أسمعه طيلة حياتي من هاتف محمول قبل هذا اليوم.

ـ أكرم فهمي معاكي يا فندم... خير؟

* * *

قبل النهاية بعام

كافيتريا فاخرة للغاية.

هي أقرب لقطعة من قصر فخم بُني بالحجارة العملاقة، وُزعت فيه الإضاءة الحالمة في كل ركن... إضاءة تلقي بظلال صفراء باهتة فوق تكوينات الحجر... ونافورة صغيرة في منتصف المكان تبث ماءً رقراقا، بينما موسيقى من زمن ما قبل أن يُخترع الروك والهيب هوب تنبعث من أركان خفية.

مكان خُلق لكي يتبادل فيه الناس أحاسيسهم الرقيقة.



هناك في طاولة قصية تستند إلى أحد الحوائط الحجرية الأنيقة، وتُغيب الإضاءة الخافتة وجوه الجالسين عليها، يجلسان... هو وهي... شاب في أوائل ثلاثيناته... في الواقع هو أتم الرابعة والثلاثين صبيحة اليوم... جاءت به أمه للدنيا من رحمها في صبيحة هذا اليوم... شابة في أواخر عشريناتها... أتمت عامها الثامن والعشرين منذ ٣٦٤ يومًا... وبعد أربع ساعات فقط ستكمل عامها التاسع والعشرين.

شاب يرتدي ثيابًا عصرية أنيقة... حليق الوجه سخي الشعر... أزاح زرين من قميصه ليبرز شعر صدره الرجولي الكثيف.

شابة ترتدي فستان سهرة لطيفا... قصيرًا غير لامع... وتصنع من شعرها الطويل ضفيرة سوداء تنساب فوق ظهرها، لتمنحها مظهرًا يليق بإلهة جمال من عصور ما قبل النهضة.

يبدوان في حالة سعيدة... ثم ينغلقان على نفسيهما هامسين.

أمامهما كعكة صغيرة مطلية بنوع شيكولاتة ربما لم يسمع عنه أي منا... يليق بذلك المكان الذي تكلف السهرة فيه رقما من ثلاثة أصفار... كُتب عليها بحروف من الشيكولاتة البيضاء السويسرية حرفا (إم) و(كيه).

- إنتي هتقعدي ساكتة كتير؟

- إنت عارف إن كلامي خلص... لازم أسمع كلامك انت.

- تفتكري ممكن أقول إيه؟

تعود إلى الوراء وتجرع جرعة ماء كبيرة قياسا لفمها المنمق المتناسق، ثم تزفر متقدمة منه...

- تقول اللي المفروض يتقال.



ـ اللي هو إيه؟

ـ إنت هتستعبط... الحل الوحيد في الورطة اللي إحنا فيها دي.

ثم تمد يدها إلى حقيبة جلدية صغيرة بلون فستانها الأسود... وتُخرج علبة سجائر فضية، ألحق بها قداحة، لتشعل منها سيجارة تنفث دخانها في هدوء تُخفي به نارا تُشعل ألف سيجارة.

ـ إحنا كنا قولنا إيه على السجاير؟

ـ والنبي تسكت وتسيبني في اللي أنا فيه... سجاير إيه دلوقتي... إحنا في خرا ولا في شم ورد؟

ـ إنتي بتتعلمي الأمثال دي فين؟

ـ ما تجننش أمي.

مد يده ليضعها فوق راحة يدها الحرة التي تنقر الطاولة في توتر تحاول إخفاءه... فسحبتها بهدوء وعيناها تجوبان مستوى بصرها.

ـ فيه إيه؟

ـ إنتَ اللي فيه إيه... إنت بتتجاهل كلامي وكأني بقولّك إن عندي برد ولا كحة... أنا حامل في الشهر الثاني يا بيه.

ـ إنتي متأكدة من اللي بتقوليه؟

ـ دي حاجات المفروض حضرتك تبقى عارف إني متأكدة منها كويس... أنا دكتورة أسنان مش فلاحة في كفر العنب... وحتى دي كمان الفلاحات بيعرفوها من أول شهر... أنا صحيح كدّبت نفسي وقولت يمكن الشهر الأولاني عدى كده، نتيجة إني متوترة أو تعبانة من علاقتنا اللي مش ناوية تكمل، والزفت اللي احنا عملناه مع بعض.

ـ زفت!

ـ وزفتين كمان... وتاني مرة ما تقاطعنيش وأنا بتكلم.



علت طبقة صوتها... فتلفتَ ـ وعلى وجهه نظرة توتر ـ حوله ليجد الجميع غارقين كل في ملكوته... لا أحد ينظر إلى أحد هنا... لقد شعر بالخطر منذ مكالمتهما صباحًا؛ لذا فقد أحسن اختيار المكان.

ـ طب هدي نفسك بس.

ـ مشههدي نفسي... أنا عايزة حل للي حصل ده دلوقتي... والحل ده قبل ما تفكر إنك تقوله ما يكونش متضمن إني أنزل الجنين، لأن ده مش هيحصل.

ـ إنتي بتقفليها عليّ مثلا.

ـ أنا بحاول أعلمك إنك تبقى راجل وتتحمل مسؤولية اللي عملته.

ـ اللي عملته أنا لوحدي؟

ـ هو انت شاقطني من pup ولا من لوبي فندق... إنت عارف كويس إني عملت كده عشان أرضيك لأنك كنت بتزن يوميًا على كده... تفتكر إني غاوية كده مثلا؟

يعود بظهره إلى الوراء محاولا تصنع الثبات... عضلات ساقيه مشدودة على درجتها القصوى، وأحماض معدته تفور طالبة الخروج من حلقه... لكنه لن ينهار.

هو يعرف جيدا ماذا تريد... لكنه منذ يوم أن منحته ما يريد قد قرر أنه لن يمنح شيئا بالمقابل... ببساطة لأنه نذل وهو يعرف ذلك ويعتز به.

ـ بصي بقى... خلينا نبقى واقعيين... تفتكري لو اتقدمت للدكتور مهران بكرة الصبح عشان أتجوزك هيوافق؟

ـ لو في حالتك المادية اللي انت فيها دي طبعا هيرفض... واحتمال يرميك برة البيت وفي دماغك طلقتين... بس أنا هتصرف.



- هتتصرفي إزاي؟

- هسلفك الفلوس اللي تجيب الشبكة والمهر والعفش والفرح والهبل ده كله.

- تسلفيني... ليه هو أنا هشحت منك عشان أتجوزك؟

- يعني هي أول مرة يعني؟

ثم عادت بظهرها إلى الخلف، راسمة أسوأ ابتسامة ساخرة ترسمها امرأة ضربت رجلا بطرف حذائها بين ساقيه.

إلا أن الرجل يرد بسرعة.

- والله كله كان عشان خاطر مزاجك.

- تكونش فاكر إن قرصين الفلوكستين اللي كنت بتديهملي قبل ما تنام معايا دول مزاج؟ إنت عارف إن أنا أعرف أجيب المزاج اللي أنا عايزاه... سوري قصدي المزاجين... ومن غير ما أوجع دماغي لا بحب ولا بارتباط... بس للأسف... مصيبتي إني حبيتك.

- إنتي هتطفحي عليّ بلاعة وساخة مسدودة وبعدين تقوليلي حبيتك.

- تصدق أنا بنت كلب إني قعدت القعدة دي.

ثم وضعت علبة سجائرها في الحقيبة الجلدية، وأخرجت ملمع شفاة لمعت به شفتيها على عجل، وهي تقول متعمدة عدم إلقاء نظرها عليه.

- قدامك ٤٨ ساعة تفكر فيهم في اللي أنا قولتهولك... ومن الآخر ده آخر كلام عندي... take it or leave it يا حبيبي... ومش عايزة منك كتير... ممكن تتجوزني سنة لحد ما أولد والولد يتكتب باسمك، وبعدين تغور مكان ما تحب ومعاك القرشين اللي هتلهفهم مني... يا كده يا عليا وعلى أعدائي.



ثم نهضت وعدلت من وضع ثوبها الأنيق، واقتربت من أذنه هامسة بفحيح حية جرس تلتف حول فريستها المنهكة:

- Happy birthday sweetheart

وطبعت قبلة عميقة كأنما تحفرها على وجنته، فبقي أثر طلاء الشفاة فوقه... والتفت متبخترة تمشي نحو طريقها.

لماذا يشعر أن أثر طلاء الشفاه كان كرشة حمض حارق فوق وجنته، لن يزول أثرها حتى تحرق وجهه بالكامل.

وهنا خطرت له فكرة لا بأس بها... فكرة ستحل كل المشكلات... وتغلق كل الأبواب.

* * *

قبل النهاية بيومين

لماذا أحب مصر الجديدة؟

هو سؤال صعب لا أجد له إجابة منطقية... الحقيقة لا أجد له أي إجابة على الإطلاق.

أستيقظ كل يوم أيا كان مكان مبيتي... فأترجل وأبحث عن أول حافلة تنقلني إلى مصر الجديدة... أترجل منها وأتمشى في شوارعها... أصافح الأرصفة وأسلم على البنايات والمحلات التي أصبحت تتغير وتتلون حسب الحاجة... أشتري كتابًا أو كتابين أعرف أني لن أقرأهما... ثم أقصد أي مقهى أيا كان... أو ربما كافيتريا من تلك التي تحتل الأدوار الأرضية بأي بناية من بناياتها... أجلس في ركن قصي منعزل وأشرب قهوتي أيا كان تصنيعها... تركية أو اسبريسو أو أيا كان الاسم والوصف... وأستعد لاستقبال يوم جديد من المأساة التي أعيشها منذ أن رحلتا.

في البداية كانت أمي...



أربعة أعوام كاملة من الأطباء والأدوية... ثم الأطباء والأدوية... ثم الأدوية والأطباء... ثم القرار الذي لم يكن لها يد فيه سوى بالدعاء.

في ليلة حالكة من ليالي شتاء هذا العام... قرر خالقها أن وقت اللحاق بأبي قد حان... وأنه لا فترة سماح جديدة... وأن الدنيا لم تعد مكانًا مناسبًا لقديسة تتدثر بأغطية ثقيلة لتدفع بعض الدم في شرايينها من قلبها الموجوع.

ليلة استيقظتُ بعدها على ذراع قوية تشدني لكي أبتعد... ولنسوة متشحات بالسواد ملأن فراغًا كان يحتله طاقم من الكنب الأسواني، تمر عليه بخرقة قماشية كل صباح حتى لا تُفسد الأتربة خشبه.

وقبر كان يحمل شاهدًا واحدًا أصبح يحمل شاهدين.

وفي النهاية كانت ولاء...

ربما لم أكن مصيبًا حين استجبتُ لرغبتها في أن نتزوج... ربما كان من الأفضل أن أطردها شر طردة من أمام باب الشقة... وأن أغلق على عقلي وقلبي بمليون مفتاح... وأن أطلب منها فقط أن تغرب عن وجهي.

فأنا يا صغيرتي غراب لعنته تصيب كل من يقترب.

وفي ليلة رطبة من صيف نفس العام، كانت ترقد فوق فراش بمركز طبي شهير متصلة بمحقن كبير يضخ أشياء ما في دمها، كي يقتل أشياء ما التصقت بثدييها اللذين استأصلتهما قبل أسابيع.

زوجة وعروس في السنة الأولى من زواجها ترقد فوق طاولة مغلفة بقماش أبيض... شعر رأسها قد تساقط أغلبه وعيناها زائغتان وسط تجويف غائر.

وفي ليلة حالكة من خريف نفس العام... عادت ولاء إلى المنزل من إحدى جلسات العذاب الكيماوي... ثم سعلت ولاء حتى طار دمها



في وجهي... ثم نهضت لتخبرني أن عناقي لها هو أجمل ما كان في تاريخ حياتها... وأنها ستفتقده كثيرا هناك.

ثم رحلت إلى هناك.

- اللي واخد عقلك.

- أهلا يا سمر، اقعدي.

جلستْ مُعلقة حقيبتها الضخمة الممتلئة بكل ما يحتاجه كشاف متمرس للحياة في صحراء الربع الخالي... وخلعت نظارة شمسية ضخمة تملأ نصف وجهها، ثم نظرت في عيني بابتسامتها الصبوح... التي تحولت إلى تكشيرة عبوس ما إن وقعت عيناها عليّ.

- إنت بتعيط؟

- الرمد الربيعي بيموتني.

- بس إحنا في أكتوبر يا ريس!

- يبقى الرمد الخريفي ما تشغليش بالك.

تومئ برأسها متفهمة هروبي وانسحابي... فتمنحني منديلا ورقيًا معطرًا أمسح به ما خلف نظارتي... ثم أستجمع قواي المنهكة من الحفر في تاريخي.

- عملتي إيه؟

- عمل إسود ومهبب... الواد ده أنا بكلّمه بقالي يومين أكتر من عشر مرات في اليوم ما بيردش... بعتّله خمس إيميلات وما عبرنيش... مالوش صفحة عالفيس ولا له أكونت على تويتر... مالوش أي أثر.

- ده كلام عظيم... طيب إحنا هننشر المقالة ونبعتله بعدها نشوف ميّته إيه... حابب يكمل ولا مش حابب... طبعا انتي اتأكدتي إنها مش مضروبة ولا مسروقة.



ـ عيب عليك يا كبير... ده أنا سهرانة طول الليل امبارح بقرا الرواية إلى واخد منها الاقتباسات وبقرا كل حاجة عن الموضوع ده... لحد عاشر صفحة في جوجل مفيش أي نوع من أنواع السرقة أو الاقتباس.

لا بد من توجيه الشكر للسيد جوجل على ما منحه لنا من عطايا... لو كان رجلا لقبلت رأسه كل صباح شاكرًا.

ـ هي المقالة كان اسمها إيه كده؟

ـ العنصر التاسع... اسمها العنصر التاسع.

... ...

قبل النهاية بيوم

«جزء من مقال منشور على موقع (...) بعد التحديث»

(تحدّث السحرة في كتبهم والمشعوذون في رسائلهم عن العناصر الثمانية التي تكوّن الكون، التي تلزم لكل ساحر حتى يتمكن من أداء مهنته، ومن تنفيذ حيله وألعابه: الحياة... النار... الضوء... الأرض... الهواء... الماء... الظلام... الطاقة.

إلا أن القليل منهم فقط هم من يعرفون أن هناك عنصرًا تاسعًا، يمنح من يتحكم فيه قوة لا محدودة، قوة لن تؤتى لمخلوق في الكون، لذا فقد اتفقوا أن يُبقوا هذا العنصر سرًا، ربما لأنهم يخشون من أن يتحكم فيه من لا يستخدمه في الخير، وربما لأنهم أرادوا أن يتحكم فيه فقط من يقدر على أن يصل له.

لأن من يصل إلى هذا العنصر، عابرًا استحكاماتهم وحواجزهم وبواباتهم، هو فقط من يقدر على استخدام قوته، أو من يستحق أن يستخدمها.

لذا... فربما كان البحث عن هذا العنصر هو الهدف الأسمى لأي ساحر... أو ربما لأي إنسان).



خالد عوض

مدون مصري



الفصل الثاني: السيرة الذاتية

ـ البيانات الشخصية

(١)

هذا عمل يقتل الإنسان!

هكذا صرختْ سمر في جنبات عقلها.

هكذا رفع عقلها يده ووضعها على قمته، وصرخ بعلو صوته في جنبات رأسها صرخة ألم واعتراض.

بينما راحت بهدوء وبرود تعدل من وضع السماعة الموضوعة على أذنها اليسرى، والتي يتصل بها ميكروفون صغير.

هذا عمل يذبح المشاعر ويريق دم الكرامة!

صرخة أخرى تدوي في جنبات جمجمتها، تتبعها برشفة من كوب قهوة كبير رسم عليه إحدى شخصيات (المنيونز) الصفر ذوي الأعين الواسعة... بينما تعدل من وضع الحجاب الذي تضعه فوق رأسها منذ أن مات أبوها تاركا إياها وأمها واثنين من الأخوة، يحاولون البقاء كعائلة واحدة لم يكن يجمعها إلا أنها تعيش تحت ظلاله.

الصوت يرن في أذنها أن مكالمة أتت وأنها صاحبة الدور في الرد.

ـ صباح الخير سمر مع حضرتك من (...) إزاي أقدر أساعدك؟

ـ صباح الخير.

صوت قام لتوه من غفلة طويلة... وكأنه كان نائمًا في كهف... صوت تفوح منه حبات العماص ورائحة خلوف الفم.

تقلص وجهها من فرط خيالها وكادت تفرغ معدتها... إلا أن (التارجيت) أعاد لها رشدها نوعًا



- صباح الخير يا فندم.

- صباح الخير يا فندم.

بتأفف وملل يُعيد خلفها... إذن فلتستعد للمعركة:

- إزاي أقدر أساعدك؟

- أنا عايز ألغي الحجز بتاعي.

- طيب ممكن اسم حضرتك ورقم الحجز؟

- خالد.

- الاسم ثلاثي بعد إذنك.

- ليه هتعمليلي بطاقة؟

يا فتاح يا عليم... تعود بعقلها إلى الوراء لتفتش عن وجوه رأتها منذ أن فتحت عينيها حتى وصلت إلى العمل، فلا ترى إلا وجه أمها ووجه سائق الحافلة.

- اسم حضرتك ثلاثي عشان أعرف أدخل لقاعدة البيانات.

- خالد عوض مصطفى... ثلاثين سنة... ٤٤ شارع الزهور بالمعا...

- رقم الحجز لو سمحت.

قالتها بحزم... قالتها بقوة من تقود سيارة دفع رباعي فوق طريق زلق وتحاول كبح جماحها، قالتها وهي تتذكر ذلك البدين الذي قابلها في أول أيام تدريبها على هذه الوظيفة الشنعاء، وهو يعدل من وضع حزام بنطاله المتدلي أسفل كرشه.

«إنت اللي بتقود المكالمة... لو العميل ما يعرفش حاجة يبقى نعرفه اللي محتاج يعرفه... ولو العميل يعرف كل حاجة يبقى نغيرله اللي كان يعرفه... ولو العميل مش عارف حاجة ومش عايز يعرف...



يبقى نعمله اللي هو عايز يعمله من غير ما نعرّفه».

تتذكر كيف كتمت ضحكة عالية مجلجلة وهي تحاول تفسير كلمات الرجل المترهلة كجسده... وتتذكر كيف عرفت أنه كان محقًا.

أملاها رقم الحجز بصوت متلقلق تخللته محاولات لإشعال سيجارة... سيجارة سمعت صوت أنفاسه التي يغتصبها منها.

- حضرتك الحجز ده معاده النهارده... يبقى حضرتك عشان تكنسل الحجز هيبقى في كانسليشن تشارجيس.

- خير؟

اللهم أطل عمرك يا روح... يبدو أنه عميل من النوع الذي يزهق الروح مبكرا.

- مصاريف إلغاء حجز يا فندم.

- أنا بتكلم تلت لغات يا فندم وفاهم كلام حضرتك كويس... بس أنا بقول خير عشان الحجز ده معاده مش النهارده يا فندم.

- يا فندم الحجز قدامي بتاريخ ٢٣ سبتمبر والنهارده ٢٣ سبتمبر.

- النهارده كام؟

يبدو أن السيجارة لم تكن بريئة إلى هذا الحد.

- ٢٣ سبتمبر يا فندم... والكنسليشن المجاني كان لحد إمبارح لساعة ١١.

- متشكر... خلي الحجز زي ما هو.

- أقدر أساعد حضرتك بحاجة تانية؟

إلا أن ما أجابها هو الصوت المتصل لقطع الخط... الصوت الذي يقول بكل وقاحة إن المكالمة قد انتهت من طرف واحد... أحد



اللاعبين ترك الحبل فسقط اللاعب المقابل على ظهره.

بابتسامة باهتة خاوية من أي غضب أو ضيق أقفلت الخط، وهي تخلع السماعات من خلف حجابها.

- شكرا لاتصالك بـ(. . .) يا . . . فندم

* * *

(٢)

الدكتور علام... نبي الطب الشرعي... الذي أضاف المعاش لملامحه عمق عشر سنوات فوق سنوات عمره الاثنتين والستين... وإيرين مساعدته وتلميذته وسكرتيرته الشبيهة بأحد مدربي الغطس، نظرًا لما ترتديه فوق وجهها... وسمر التي تُعتبر الآن مساعدي وصديقي الوحيد... وأنا... أكرم فهمي... الكائن الفضائي الذي ينثر السواد والطاقة السلبية من حوله نثرًا.

طاولة مستديرة في كافيتريا شهيرة تطل على ميدان شهير... حيث هي أقرب مكان لسكن الدكتور علام في المنيل... حتى في سكنه بحث عمن يقربه من قصر العيني ومشرحته، فلم يجد إلا شقة المنيل الشاسعة كي تؤويه هو وزوجه الراقية الأنيقة... الشقة التي كان لها الفضل في كشفه لأعظم قضية مرت على تاريخ الطب الشرعي في مصر.

لنترك الأحاديث الجانبية ونتفرغ لبعض الأحاديث الجانبية الأخرى!

- إنت خاسس كده ليه يا كيمو؟

- والله يا دكتور باكل زي الحمار... بس كتر الفرك بقى.

- لو بتاكل زي الحمار وبتفرك برضه هتتخن شوية يعني.

- يجوز موضوع اليوجا ده عامل معايا شغل.



ـ اليوجا بتهدي الأعصاب وبتريح بس ما بتخسسش يا ابني.

ألا ينطق لسان هذا الرجل ببعض اللغو أحيانا مثلنا!

ـ أنا مش مصدقة نفسي إني قاعدة قدام حضرتك.

ـ ليه يا بنتي هو أنا نجم سينما... ده أنا حياالله طبيب شرعي، وسابق كمان.

ـ هو حضرتك كده بالضبط زي ما كيمـ... أكرم حكالي عنك.

ابتسم ونظر إلى إيرين نظرة ذات معنى، فتبسمتْ ونظرت في وجهي بنظرة ذات معنى لا أعرفه... كيف تقرأ المعاني من خلف تلك النظارة المعظمة؟

سأكف عن السخرية في سري حتى لا تفضحني ملامحي المنهكة.

ـ جبتلي اللي قولتلك عليه؟

ـ طبعًا... هو أنا هغلب يعني يا دكترة.

ـ دكترة!

ينظر لي من فوق نظارته وهو يكتم ضحكته... ونظرة منه بألف كلمة... صن لسانك قليلا... لا تفسد البرستيج يا ولد.

وصلتني رسالته وتأكد هو من خاتم الاستلام في عيني، فأخرجتُ مظروفًا كبيرًا ممتلئًا وناولته إياه.

ـ إيه ده؟

ـ ده تاريخ حياته هو واللي خلفوه، من يوم ما وعي على الدنيا لحد ما مات.

تناول الملف وهو يقلبه في يده... ووزنه بيديه كأنه يزن فخذا من لحم الضأن... ثم ناوله لإيرين فوضعته داخل حقيبة عملاقة من



القماش... لماذا كل ما يتعلق بهذه الفتاة عملاق قياسًا لحجمها الضئيل وبنيتها النحيلة!

كف عن أن تكون وغدا يا أكرم والتزم في أفكارك قليلا.

- قريت حاجة منه؟

- لا الحقيقة أنا جبتهولك زي ما هو... إنت عارف إن فضولي له أوقات بينام فيها وما بيتحركش... خصوصًا لو كان الموضوع ما يفرقش معايا أوي.

- إنت هتعملهم عليّ يا ولد... ده انت جاي عشان الموضوع فارق معاك جدا.

- والله لو بتعتبر إن الواحد محتاج لحظات ترجعه للأيام اللي ما كانش فيها عالرف، وإنه بقى فيه أيام سودا محتاج فيها لحظة تفكره بده... يبقى تقدر تقول إن الموضوع فارق معايا.

أحاول الالتفات إلى سمر متهربًا، فيصدمني حاجبها المتعلق فوق عينها اليمنى، ونظرة عينيها التي تخترقني لتخبرني أنك كاذب يا أكرم.

- بص بقى يا أكرم... أنا مش عارف أبلع الموضوع ده بسهولة كده... أنا بقالي أسبوع بسمع تفسيرات زي الفل من الإخوة في المباحث لحد ما دماغي ورمت... وأنا مش عارف أكتب تقريري صح لأني مش مقتنع تمامًا بكل اللي بيقولوه.

ثم رشف رشفة من كوب القهوة، وأبدى امتعاضه منها وهو يشعل سيجارة طولها كطول يومنا هذا.

- اللي يقولّك ده قفل على نفسه باب الحمام وانتحر... واللي يقولك حد عمل فيه كده فا هرب منه للحمام بس ما استحملش الصدمة ومات... وآخر اختراع بقى... إنه عضو في تنظيم ماسوني وده تمرين



من تمارين التحمل.

ضحكة مجلجلة من سمر لم تقو على كتمانها، بينما إيرين تضحك ضحكة رقيقة أشبه بطفل مصاب بالزغطة... رغم نظاراتها المعظمة وحقيبتها الشبيهة بمخلة الجيش تبدو فتاة راقية رقيقة.

- هو دكتور توفيق اشتغل في المباحث ولا إيه؟

- لا والأنقح إنهم عايزني أخلص التقرير بسرعة عشان يقفلوا القضية... أمّال جبتوني من الأول ليه... والواد الظابط اللي ماسكها بتاع المباحث... عارف الواد الممثل الطويل الأهبل ده اللي بيفتح القميص لنص صدره؟

- آه عارفه، اسمه...

- ما علينا من اسمه... أهو عامل زيه كده... بس مع الفرق إنه عامل لنفسه مغلف من الجلد ما تشوفش منه أي ردة فعل... قناع جبس مصمت ممكن يتشقق لو ضحك... ولا الشنب يا ابني... يا سلام عليه.

الضحكات تتوالى بين مجلجل ومكتوم وضحكتي الشبيهة بنقيق الضفادع... هذا العجوز لم يُفقده المعاش ولا تصلب الشرايين كل ما في روحه من سخرية سوداء كالحة.

- المهم بقى، أنا مش عايز الحاجات اللي موجودة في الملفات يا أكرم... أنا عايز اللي برة الملفات... عايز اللي كان بيحبه وكان بيكرهه... اللي كان بياكله واللي كان بيشربه... عايز أعرف الحاجات اللي أنا مش هقراها في الملفات، بس انت هتقراها في عيون الناس.

- إنت مهتم بالقضية دي ليه أوي كده يا دكتور... ما تشرح وتحدد سبب الوفاة وكل عام وانتم بخير.



ـ عارف الفرخة لما تتدبح؟

صمت الجميع ونظروا إلى وجهه... وانتقل طقس الطاولة من مشمس إلى غائم ضبابي.

ـ الفرخة لما بتتدبح بيبقى فيها شوية روح لسه... بتقعد تتهز وتترعش عشان تقوم تقف على رجلها تاني... بتاخد وقت طويل أوي على ما تستوعب إنها اتدبحت وإنها ماتت... أهو أنا لسه مش مستوعب إني اندبحت يا أكرم... فسبني أستمتع بشعور الرعشة اللي فيّ... لحد ما أتقبل إني اتدبحت.

ثم امتص نفسا قويًا من سيجارته واستند إلى طرف الطاولة لينهض، فتلقفته ذراع إيرين ليستند عليها... وحياني بيده ثم أخرج حفنة من المال وضعها أسفل مطفأة السجائر ورحل.

ـ الراجل ده مشكلته إنه عبقري أكتر من اللازم.

ـ ليه بتقول كده؟

ـ لأن صعب أبدا على حد إنه يبقى فاهم نفسه أوي للدرجة دي... ويبقى عنده القدرة دي على إنه يعترف إنه خلاص... مستني الدبح.

صمتت وهي تزن وقع كلماتي على أذنها، ثم رشفت آخر جرعة من مشروبها ذي الفوم... وقالت وهي تمسح شاربًا أبيضا تكون فوق شفتيها...

ـ طيب هنعمل إيه؟

ـ إنتي كل اللي هتعمليه إنك تطلعي على الشركة اللي كان بيشتغل فيها... تشوفيها كده أخبارها إيه، ومين بيعمل إيه، وتوصلي بطريقة ما لحد من أصحابه هناك ولا زمايله... وبعدين هقولّك تعملي إيه.

ـ ماشي كلامك يا كبير... اسمها إيه بقى الشركة؟



ـ فارما وورلد... شركة توريد محاليل طبية ومستحضرات وحاجات من بتاعة الكيميا والصيدلة.

ـ والواد اسمه إيه؟

أخرجتُ من جيب قميصي قصاصة ورقية كتبتُ عليها اسمه بخط عريض، ناولتها لها فقرأت الاسم وراحت تقلبه في رأسها... ثم أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها وراحت أظفارها تعبث فوق شاشته...

ـ إيه لقيتي نمرته متسجلة عندك؟

ـ طبعا لقيتها.

ـ ليه... يكونش كان عريس من إياهم؟

ـ أكرم انت إمتى مخك بقى شبه الصفيحة؟

نظرتُ لها بدهشة وهي ترفع وجهها من الهاتف وتضع شاشته أمام أنفي.

ـ المقالة دي اللي حضرتك منقيها من وسط عشرين مقالة عشان تتنشر في أول عدد للموقع بعد التطوير... ممكن حضرتك تقرا الاسم كده اللي مكتوب تحت.

ـ خالد عوض... مدون مصـ... إيه ده؟

يبدو أن عقلي ذهب بغير رجعة

كيف لم ألاحظ ذلك من قبل؟

* * *

(٣)

تخطو سمر خطوات متأرجحة مرحة فوق رصيف الشارع المنحدر إلى



أسفل، كمثيله من شوارع المقطم.

يأتيها الخاطر المضحك أن شوارع المقطم تبدو جميعها منحدرة إلى أسفل أو مرتفعة إلى أعلى، الشوارع الرئيسية والجانبية والفرعية، وحتى شوارع ذلك المجمع السكني الفاخر الذي حضرت حفلة ما في نادي الجولف الخاص به، عندما كانت تعمل في وظيفتها المملة المقيتة.

تقترب من باب فيلا صغيرة ذات حديقة وارفة الأشجار، ولوحة بلاستيكية أنيقة أخفي نصفها بفعل فروع شجرة كافور عجوز، نقش عليها بالعربية والإنجليزية بخط عصري واضح

PHARMA WORLD

فارما وورلد

إذن فالعنوان صحيح، هنا كان يعمل الشاب ذو الثلاثين عامًا، تتذكر صوته الخمول النائم عندما اتصل بها يلغي حجزا فات موعد إلغائه، تفصيلة صغيرة لم تتذكرها إلا عندما رأت عنوان منزله في صورة البطاقة التي تقبع في حقيبتها الكبيرة.

عيناها تجوبان البوابة الحديدية القصيرة بحثًا عن أحدهم ممن يصلحون كبداية مثمرة لحوار بنّاء ينتج عنه تسرب للمعلومات، بالنسبة لها فلا حوار بنّاء دون معلومات، تحدث نفسها دائمًا أن أكرم مثله مثل كل الرجال لا يعرف كيف يكون الحوار البنّاء، لا يعطي معلومة إلا بحساب ولا يمنح خبرا إلا بفائدة، بينما محادثة مكونة من خمس جمل في دقيقة واحدة بينها وبين صديقتها الصدوق قد تمنحها سيلا لا يوصف من المعلومات المثمرة، بداية من لون فستان جديد اشترته إحداهن حتى لون عيني ذلك الفتى الوسيم بطل المسلسل التركي الجديد.

تفتح البوابة ليخرج منها رجل في أواخر أربعيناته، أو ربما في



أولها، أكسبه الهم أثقالا فوق كتفيه، ووجهه المتغضن بقليل من التجاعيد... وقميصه المشمر الكاشف عن قطعة ملابس رمادية لا تعرف سمر ما اسمها، إلا أنها تراها في الأفلام والمسلسلات أسفل ثياب مِعلمي الصعيد...

يخطو بخطوات بطيئة مثقلة بمهام جسيمة كما يبدو على وجهه... وعيناه تجوبان المكان بحثًا عن شيء ما خارج حدود الفيلا.

- صباح الخير يا عمو.

- صباح النور... خير، حضرتك بتدوري على حاجة؟

- مش دي شركة فارما وورلد؟

- أيوه هي... أؤمريني.

- حضرتك بتشتغل هنا؟

قلب عينيه الغائرتين في قسمات وجهها وثيابها... كأنه يزنها ليحدد من أين يأتي الخطر فيها... ورائحة الشك تفوح من بين أسنانه المصفرة مع رائحة تبغ رخيص... أو ربما رائحة المعسل.

- أيوه بشتغل هنا... خير؟

- والله حضرتك أنا من شركة إنترميديا للدعاية والإعلان، وكنت عايزة أقابل...

- اتوكلي على الله يا بنتي وشوفي حد تاني... مش محتاجين دعاية وإعلان إحنا.

بلهجة شبيهة بلهجة من يصرف شحاذًا من على عتبته... بنظرة توجهها ربة منزل متشككة لفتاة صينية رقيقة أتت لتبيعها مفارش طاولة مطرزة.

- لا حضرتك فاهمني غلط أنا جاية أسأل عن الأستاذ...



- لا صح ولا غلط... اتكلي على الله يا بنتي بقولّك مش عايزين.

تمد يدها في حقيبتها الكبيرة وهو يقترب مشيحًا بيده... ربة المنزل لا تريد مفارش سفرة...

تُخرج يدها حاملة ورقة مما يسمونه (Sticky Notes) مصحوبة بورقة من فئة العشرين جنيها... فتحولت ربة المنزل الغاضبة إلى بواب جائع.

- حضرتك بس لو تصبر عليّ أنا هفهمك.

- ما انتي مش مفهماني من الأوّل يا بنتي.

ابتسامة ساخرة ظهرت على طرف شفتي سمر المصبوغتين بطلاء شفاه من طراز ماك... والرجل - الشبيه بالممثل العظيم أحمد راتب - يقلب العشرين جنيها في يده فرحًا بغنيمته.

سمر تقرأ من الورقة كأنها لم تحفظ الاسم كأنه اسمها.

- الأستاذ... خالد... خالد عوض مصطفى.

- تقصدي الدكتور خالد.

- يا سيدي الدكتور خالد... ما غلطناش في البخاري يعني.

- الدكتور خالد بقاله ست شهور سايب الشركة يا بنتي.

راحت تصب اللعنات على نفسها وعلى هبة وعلى مصدر المعلومات الذي منح أكرم هذه المعلومة... لو يتوقف الرجال عن التقصي ويتركون الخبز لخبازه لكانت الدنيا أفضل وأجمل.

- طب حضرتك ما تعرفش حد يوصلني بيه.

- إنتي عايزة تعملي دعاية ولا عايزة الدكتور خالد... ما ترسي على حل وترسيني.



ورقة أخرى من فئة عشرين جنيها وجدت طريقها إلى جيب قميصه، مع ابتسامة على وجه سمر جاهدت لتجعلها ساذجة بريئة.

- مالوش لزوم والله التعب ده يا بنتي.

- تعبك راحة يا عم... ألا انت ما عرفتنيش بيك.

- محسوبك حسن... حسن الفولي.

- تشرفنا يا عم حسن... ما قولتليش بقى مين يعرف يوصلني للدكتور خالد؟

تلفت حوله كأنما هو على وشك إعطائها اسم عميل فيدرالي متخف... واقترب منها هامسا:

- إنتي هتخشي جوة تقابلي السكرتيرة اللي اسمها سعاد... وتقوليلها إنك عايزة تقابلي الدكتور وائل... وائل أبو السعود... واتصرفي معاه بطريقتك بقى.

- تسلملي يا راجل يا بركة.

- آه وما تنسيش... شوفيلك حاجة تانية غير حجة الدعاية والإعلان... عشان دي ما تخيلش على عيل صغير.

وألقى على وجهها بنظرة ساخرة منتصرة وهو يرفع يده بتحية ما، ويخطو بخطواته الثقيلة ضاربًا كفًا بكف على الفتيات الساذجات اللاتي تصورن أنهن يقدرن على خداع رجل مثله.

ومع خطوات سمر الواثقة نحو الفيلا، وهي توزع من زجاجة عطر صغيرة بعض الدفقات على طرف حجابها البرتقالي... نمت ابتسامة باهتة على شفتيها.

ابتسامة من يعرف ما يفعله جيدا... ولماذا يفعله.

... ...



ـ الحالة الاجتماعية

(١)

يخطئ من يظن أن سمر غبية.

قد تبدو من عائلة طيبة وتربت في وسط متحضر وسط أقارب يعاملونها معاملة خاصة... درست في مدارس لغات منغلقة على نفسها لا تعرف من الصديقات إلا مَن هم مثلها، لكنها أنثى... والأنثى أبدا لا تُصنف على أنها غبية... قد تدعي الغباء أو تتصنعه لتقنع رجلا أنها أقل منه أو أنها طوع يديه ـ لأن الرجال لا يحبون المرأة الذكية ـ قد تتصنع الغباء كي تحظى بسلامها النفسي ـ لأن الناس لا يتركون المرأة الذكية وشأنها ـ لكنها ليست غبية ولم تكن، لذا فقد ابتلعت كلام الرجل وأدخلته إلى حاسوبها الشخصي التحليلي الملقى هناك في طرف عقلها... ثم توصلت إلى نتيجة هامة.

آخر من سوف تسألهم عن خالد هو ذلك الملقب بـ(وائل).

تذكرت عندما قال لها أكرم مرة إن هناك مقولة منتشرة بين الشباب... ما للصاحب عند صاحبه هو ثلاثة أشياء ثالثها شهادة الزور... إذا كان الجميع يعرف أن وائل أبو السعود هو صديق خالد المقرب... فمن المؤكد أنه سيستخدم الاختيار الثالث مع فتاة لحوح سمجة مثلها.

عقلها قال لها ذلك وهي صدقته... بل وآمنت به ورسمت خطتها من خلاله!

أول من ستسألهم عن خالد تلك الفتاة البسيطة التي تدعي أنها جميلة، والتي تجلس خلف طاولة الاستقبال في مدخل ما كان يمثل الصالة في الفيلا البسيطة، والذي تحول إلى صالة استقبال لهذه الشركة.

ديكورات بسيطة لكنها زاعقة بالألوان، كوجه تلك الفتاة التي



تنظر لها وعلى وجهها ابتسامة رسمية رسمها أحدهم في إحدى تلك الدورات التدريبية عن التقنيات التسع في الـ... ... إلخ إلخ إلخ...

ـ صباح الخير... سمر العشماوي من آمون فارما.

ـ أهلا وسهلا يا فندم... أساعد حضرتك إزاي؟

ـ أنا كنت جاية أقابل...

ثم قطعت عبارتها مخرجة ملفًا ما من حقيبتها وراحت تقلب في أوراقه، مدعية أنها تبحث عن الاسم الذي تحفظه كما تحفظ درجة لون طلاء أظفارها البندقي.

ـ دكتور خالد عوض.

ـ خالد عوض مصطفى؟

ـ أيوه بالظبط.

هل اختفت الابتسامة للحظات من على وجه الفتاة ثم عادت مرة أخرى كفلاش الكاميرا؟ أم أن سمر تتخيل ذلك؟

ـ والله كان نفسي أساعد حضرتك بس الدكتور خالد ساب الشركة من ست شهور... الحقيقة هم خمس شهور ونص.

ابتسامة تنبت على وجه سمر معلنة انتصار نظريتها... الفتاة التي تجلس في الاستقبال وتحفظ التاريخ الذي ترك فيه أحدهم العمل بهذه الشركة، هي فتاة تملك شيئا ما ناحية ذلك الـ (أحدهم).

ـ خسارة... أنا كنت جاياله في ديل كويسة من عندنا... طيب معكيش رقم تليفونه أو عنوانه أعرف أوصله؟

ـ لا والله يا فندم معرفلوش رقم تليفون ولا عنوان.

أهذه نظرة توعد أو غيرة أو...



ـ طيب ممكن تساعديني أوصل لحد هنا معاه رقم تليفونه أو عنوانه... كان ليه صديق هنا كان بيكلمني عنه أسمه وائل أبو...

ـ دكتور وائل أبو السعود في أجازة بقاله أسبوع... ممكن حضرتك تعدي عليه الأسبوع الجاي، بس اتصلي خدي معاد عشان كل الريبس بيبقوا برة الشركة غالبا.

ـ الريبس؟

نطقتها محاولة تخيل كيف يتحول الـ Medical Representatives إلى (ريبس).

ليس وقت الدقة اللغوية الآن... لا بد من استكمال المحاولة حتى النهاية... الصيد داخل الشبكة الآن، وبقيت حركة بسيطة حتى تسحبه إلى المركب.

ـ بصي... إحنا بنات زي بعضينا وأنا عايزة مساعدتك.

ـ مساعدتي إزاي؟

قالتها سمر محاولة بكل الطرق أن تظهر مهاراتها التمثيلية المدفونة... أن ترسم كل القلق وخيبة الأمل وكل الخوف فوق عينيها الواسعتين وحواجبها المرسومة بعناية.

ـ أنا عايزة أعرف طريق خالد بأي شكل يا... إنتي اسمك إيه؟

ـ سعاد.

ـ أنا محتاجة أعرف طريقه بأي شكل يا سعاد... أرجوكي المسألة مسألة حياة أو موت.

نظرة انتصار خفيفة مع بريق يضيء شارعًا صغيرًا على عيني سعاد... وسمر مستمرة في رسم نفس التعبيرات التي توحي أن الأمر جد خطير... خطير لدرجة أن سعاد بدت وكأنها تحفظ هذه التعبيرات.



ـ آنسة سمر... أنا ما اعرفش لخالد طريق... ولو كنت أعرف طريقه فمش هقولّك عليه.

ـ أرجوكي... بقولّك مسألة حياة أو موت.

ـ أنا لا عايزة تبقى لي علاقة بيه ولا بأي حد من طرفه... وكفاية اللي حصلي من ورا معرفتي بيه... أنا مش ناقصة أرجوكي.

ثم نهضت معلنة أن الحوار قد وصل إلى محطة لا تكملة بعدها... الابتسامة المرسومة ويدها المطلية أظفارها بطلاء أحمر قان تشير إلى الباب.

سمر ترسم نفس الملامح والتعبيرات على وجهها مع قليل من نظرات الاستجداء... بينما عقلها يقهقه في جنبات رأسها... الماء يسري في مساره المرسوم... تتبقى فقط الخطوة الأخيرة.

لذا فقد نهضت راسمة ببراعة ملامح خيبة أمل فوق ملامحها الدقيقة... ثم التفتت مولية ظهرها لسعاد وعلى شفتيها شبح ابتسامة ساخرة وهي تهمس لنفسها.

ـ استعنا عالشقا بالله.

وما إن أتمت همساتها حتى سقطت مغشية عليها.

أو هكذا بدت.

وأمام عينيها رأت الجماهير تقف مصفقة.

* * *

(٢)

أغلق عيني ثم أفتحهما من جديد فلا أرى جديدًا.

نفس الوجوه التي تجلس حولي... الأعين الحالمة بغد تظنه أفضل... والأعين الغاضبة من موعد تأخر... والأعين الباكية على



فراق ظن أصحابها أنهم غير ملاقيه.

أغلق عيني فأراها تبتسم في صمت، ولمعة حالمة على مقلتيها اللتين تضربان قلبي كمئات الصواعق فيعود للحياة بعد أن كان قد همد.

ثم أفتحهما فأكتشف من جديد أنها لم تعد هنا.

عذاب سيزيفي مقيت.

حجر أدحرجه من الأسفل إلى الأعلى كل دقيقة، ثم أفتح عيني لأجده قد سقط من جديد إلى سفح عقلي، فأغلق عيني معاودا دحرجته نحو القمة بلا ملل.

- أنا تعبت من الكيماوي أوي يا أكرم.

- ما هو في حاجات بتتعب بس وجودها ضرورة يا حبيبتي... طب ما الشغل بيتعب بس من غيره مش هنلاقي ناكل.

- هو انت مش هتبطل تلخبط السادة على أبو سمسم أبدا.

- اتنيلي على عينك هو أنا لو بطلت كنتي هتعبريني تاني.

تبتسم فتشرق الحياة... بسمة منهكة وسط وجه غائر فقد أغلب نضرته واستقر على رأس لم يبق من شعره - الذي كان غجريًا مجنونًا- إلا بقايا.

لكن العينين لم تفقدا بريقهما ولا الابتسامة فقدت ألقها.

أغلق عيني من جديد لأواصل عذابي... ثم أفتحهما لأجدها تجلس أمامي...

- مش ملاحظ إنك بتعيط كتير اليومين دول؟

- إيه ده انتي جيتي إمتى... وإيه اللي مبهدلك كده؟

- مبهدلني إزاي؟



سمر تُخرج من جراب الحاوي مرآة تحدق فيها متناسية أنها ضبطتني وأنا أسيل الماء من عيني لمرتين متتاليتين... وهي تزوم بشفتيها وتلعب بأصابعها معدلة من وضع حجابها المتسخ، وحواجبها التي تحولت إلى رصيف في شارع مزدحم.

- ده أنا متبهدلة تمامًا.

- أيوه ما أنا خدت بالي... إجابة سؤالي فين بقى؟

- لا إجابة سؤالك دي هتحتاج واحد فرابتشينو لارج سنجل شوت، وعليه فانيليا فلافور وكريمة بندق.

رفعت يدي أشير لذلك النادل المتأنق، وأشرت لسمر كي تملي عليه مقادير مشروب ساحرات القرون الوسطى الذي تلفظت بها منذ قليل، وانتظرت حتى انصرف لاويا أنفه متأففًا كعادة هذه الأيام - وكأننا لا بد أن نقتصد في طلباتنا حتى ينعم بقسط من الراحة وهو يؤدي عمله- ثم عاد إلينا ووضع على الطاولة كوب قهوة فخاري، تعلوه عشرة سنتيمترات من الكريمة البيضاء المغطاة بشيء ما يشبه الشيكولاتة.

- إيه بقى؟

- إيه انتي... أنا سألت سؤال من يجي ربع ساعة وما خدتش عليه إجابة... إنتي هتشربي البتاع ده إزاي بالمناسبة؟ ده في كوباية تانية فوق الكوباية.

- لا ما هو فيه خطوات... الأول ناخد الكريمة والصوص ونعمل بيهم شوية لذة في سقف الحلق... وبعدين ندوب اللي فاضل في القهوة واللبن وبعدين...

- وبعدين تترفدي بالسلامة إن شاء الله.

لوت شفتيها مطقطقة وهي تنظر لي في نفاد صبر... ثم شرعت ترفع الكريمة من فوق المشروب وهي تلعق الملعقة في تلذذ.



ـ الشيكولاتة والكريمة دول متعة.

ـ قومي يا سمر روحي... انتي مرفودة خلاص.

ـ ده أنا الأنتيم يا كبير.

قالتها مبتسمة وعيناها تبرقان في جذل...

ـ وبعدين انت مستخسر فيّ لحظات أكافئ بيها نفسي بعد الإنجاز الفظيع اللي عملته النهارده...

بدأ الأمر يثير غضبي وبدأ صبري فعلا ينفد... لولا أنها فتاة لكنت سكبت كوب القهوة بكريمته ولبنه فوق رأسها ثم لكمتها أسفل عينها ورحلت.

ـ طيب أنا قدامي خمس دقائق... لو ما سمعتش منك جملة مفيدة هقوم أمشي... وهتدفعي انتي حساب الخمسة قهوة اللي شربتهم والفارشينو إلى بتشربيه ده.

ـ فرابتشينو.

ـ أيا كان.

تنظر لي صامتة... ثم تطلق ضحكتها المجلجلة العابثة فتلين ملامحي من جديد... طفلة صغيرة تمنيتها طوال عمري... لو تفهم أني أحبها كابنتي التي لم يسعفني الوقت لأنجبها لكانت الحياة أفضل.

ـ باقي من الزمن ثلاث دقائق.

ـ خلاص قلبك أبيض.

ثم ألقت بالملعقة في إهمال فوق منفضة السجائر التي ملأتها أعقابي ونسي النادل المتأفف أن يبدلها... وقربت وجهها مني هامسة...

ـ ده صاحبنا ده طلع بلوة مسيحة.



- إزاي يعني؟

- إزاي دي بقى اشتريها مني دلوقتي... بس ركز معايا كويس.

* * *

(٣)

«الجو غائم جزئيًا مع احتمالية سقوط أمطار متفرقة نتيجة تجمع السحب الركامية في طبقات الجو الـ...»

دكتور علام يجلس في شرفته مراقبًا تلك السحب الركامية وهي تتجمع فوق رأسه.

مقعد صغير أمامه طاولة زجاجية مستديرة... في شرفة لا يتعدى عرضها المتر ونصف المتر... واضعًا ساقًا فوق ساق مستمتعًا بسيجارته السوبر وقهوته التي أعدها في أربعين دقيقة فوق سبرتاية من العصور الوسطى.

بلا هواتف... بلا كمبيوترات... بلا برامج حوارية ساخنة... بلا أي شيء سوى ذلك الملف.

صور... وتقارير... وافتراضات... وتحريات... وتحاليل... وأرقام وحروف وحروف وأرقام.

«خريج صيدلة دفعة ٢٠٠٥... تقديره جيد جدا... اتخرج من الكلية واختفى سنتين ونص وظهر فجأة في شقة المرحوم أبوه في المعادي في بدايات ٢٠٠٨».

- اختفى! هو الواد أكرم خاب ولا إيه بعد ما بقى عواطلي.

امتص سيجارته الطويلة وسرح بعينه في السحب التي بدأت تقترب من بعضها موشكة على التصادم، ثم عاد إلى الأوراق.

«اشتغل أربع سنين في مركز بحوث أدوية شهير... شهير دي أصرفها



منين أنا... سابه في نهايات ٢٠١٢ وبعدين اشتغل تلات سنين في شركة أدوية مع شغله في مركز طبي بعد الضهر كان ماسك فيها معمل التحاليل لحد ٢٠١٥... وحوالي سنة تقريبًا خالي شغل قبل الحادثة».

راح يقلب بضع أوراق حتى وصل إلى ورقة صفراء صغيرة في حجم نصف ورقة فلوسكاب، تفوح منها بقايا شاحبة من عطر أنثوي كُتب عليها بخط منمق «ما خطبش وما اتجوزش ومش معروف إذا كانت ليه علاقات نسائية ولا لأ... جاري البحث والتأكد».

- الجملة الأخرانية دي أكرم اللي كاتبها، أنا ما اتوهش عن خطه الملخفن.

صوت جرس الباب... جرس قديم يشبه أجراس بيوت البشوات في أفلام هنري بركات... صوت يخبر الواقف أمام الباب بأن صاحب المنزل اختار أسوأ طريقة لتعلمه بأن ضيفًا ما هناك.

نهض متثاقلا يجر قدمه نحو الباب، لاعنًا كل من أفسد عليه لحظة صفائه أمام النيل وكوب القهوة، والسحب التي بدأت تُصدر دويًا غاضبًا في معاركها المشتركة.

فتح الباب ليجد ذلك الشاب طويل القامة مشدودها... القامة الشبيهة ببطل ألعاب قوى... لا عضلة في غير مكانها ولا عضلة زائدة عن تكوينها التشريحي المثالي.

- أهلا باسل باشا... اتفضل.

- مساء الخير يا دكتور.

- قول صباح الخير بقى الساعة لسه...

- اتناشر وربع يا دكتور.

رفع دكتور علام نظره إلى الساعة العتيقة، القابعة أسفل صورة له



ببدلة سوداء بجوار سيدة رقيقة صففت شعرها إلى الأعلى وابتسمت في هدوء.

ـ آه صحيح، الساعة اتناشر وربع... يبقى مساء الخير أكيد... تشرب قهوة؟

ـ شكرًا... أنا بقالي يومين ما بعملش حاجة غير شرب القهوة.

ثم خطا إلى داخل الشقة، ووقف ناصبًا قامته الطويلة خالعًا نظارته الشمسية عديمة الفائدة في هذا الجو الغائم.

ـ عندك مشكلة نقعد في البلكونة؟

ـ بالعكس أنا بحب الجو المفتوح جدا.

ـ طب هات كرسي في إيدك وتعالى.

حمل مقعدا من مقاعد السفرة كأنه يحمل حزمة من الخس... وتبع خطوات علام الثقيلة نحو الشرفة.

ملامح وجهه الجامدة راحت تجوب حوائط الشقة كعادته... ورق الحائط المزركش كأنه لصق بالأمس... صور تحمل كلها أشرطة سوداء في ركنها الأيمن العلوي.

دخلا إلى الشرفة على خلفية صوت اشتداد المعركة بين السحب الرمادية العجوز... وجلسا متقاربين يراقبان النيل.

ـ سيجارة يا باشا؟

مد يده بسيجارة سوبر طويلة، فرفع باسل يده بعلبة سجائره الأجنبية شاكرا... رسالة قصيرة تعني أنه لا يقوى على سجائر العجوز طويلة الأمد.

ـ خير يا باسل باشا... ما هو انت أكيد مش جاي تتطمن على صحتي.

ـ وإيه اللي يمنع يعني؟



- إنت راجل ذكي ولماح وظابط شاطر... فا ياريت نخش في الموضوع على طول.

- قصرت عليّ مسافات كتير والله.

ثم التفت إلى علام ونظراته الجامدة تطلق شرارها إلى وجهه، كذلك البرق الذي سطع فوق رأسهم...

- إيه اللي بيحصل في القضية يا دكتور؟

- حدد سؤالك.

- مين اللي بيدخلوا في القضية يا دكتور... كده السؤال محدد؟

- خليني أسألك أنا السؤال ده.

ابتسامة باهتة ارتسمت على قسماته الحادة الجافة... ابتسامة اختفت بأمر مباشر من عقله كالعادة.

- الواد الصحفي هو والبنت اللي معاه.

- صحفي مين؟

هذه المرة ترك عقله العنان لصدره كي يخرج زفرة أشبه بضحكة أو تنهيدة... هي شيء ما يحمل نبرة ساخرة دفعت الدم إلى رأس علام العجوز.

- دكتور علام... أنا مش عيل صغير لو حضرتك خدت بالك... وانت عارف كويس صحفي مين اللي أنا أقصده... أكرم فهمي يا دكتور علام.

- أكرم فهمي صديقي وفي مقام ابني... وأنا طلبت منه شوية مساعدات عشان حركته أخف مني شوية، بصفته زي ابني مش بصفته صحفي.



ـ وانا ما اعرفش ده ليه يا دكتور... حضرتك ناسي أو متناسي إن أنا الظابط المسؤول عن القضية ولا إيه؟

دفن سيجارته الأمريكية القصيرة في قلب المنفضة وسط أعقاب السوبر المتهالكة الممتصة... دفنها بأصابعه الطويلة في عنف، مرسلا رسالة بشفرة لا تخطئها عينا علام الرماديتان المنهكتان.

ـ دكتور علام... خلينا نبقى متفقين على خطوط عريضة في القضية دي.

ـ خطوط إيه؟

ـ ما تقاطعنيش لو سمحت وسبني أكمل كلامي... حضرتك تفتكر كويس إن أنا اللي طلبت، وبشكل شخصي، من سيادة اللوا إنك انت اللي تمسك القضية... وبناء عليه حضرتك سبت كرسيك البامبو وترابيزتك الإزاز والسبرتاية النحاس، ونزلت عشان تشرح الجثة وتحددلنا أو تقربلنا من سبب الوفاة وإزاي تمت الجريمة... وتكتب تقريرك وترجعلهم تاني مع كل التقدير... مهمة محددة وواضحة زي ما حضرتك شايف... شغل التحريات والتحقيقات ولم المعلومات ده شغلنا إحنا، وإحنا اللي مسؤولين عنه... فياريت حضرتك تلتزم بشغلك وتسيبنا نلتزم بشغلنا، بدل ما كل يومين تلاتة تتعب ركبك وتزود عليها الخشونة وتنزل تعمل اجتماع مع فريق المهمة المستحيلة بتاعك، عشان تعملوا شغل مش شغلكم.

ـ إنت بتراقبني ولا إيه يا حضرة الظابط؟

ـ طبعا براقبك... دي حاجة مفروغ منها... حضرتك الطبيب الشرعي في قضية قتل حصلت في القسم اللي أنا ماسكه... يعني لازم تبقى عيني عليك طول الوقت، إنت وأي حد له دور في التحقيق ده.

ثم أخرج ضحية جديدة من علبة سجائره... ضحية اشتعلت وتوهجت بنار صدره الغاضب رغم عينيه الباردتين.



البرق ينير السماء الغائمة من جديد مصاحبا لصوت الغضب... المعركة قاربت على الانتهاء والدموع بدأت تتساقط من الطرفين.

- خلصت كلامك يا حضرة الظابط؟

- تقريبًا.

- شرفت شقتي المتواضعة.

ثم نهض مستندًا على المقعد ومد يده المعروقة المتغضنة نحو باسل... الذي نظر لها في صمت، ثم نهض وعلى غلافه الجلدي المشدود ابتسامة باردة... ابتسامة سمح بها عقله المسيطر فقط كي لا يُلقي بالعجوز من شرفة منزله نحو الشارع.

نظر إلى يد علام الممدودة... وارتدى نظارته الشمسية مداريًا عينيه وهو ينظر إلى السماء التي بدأت تلقي بما حملت فوق رأسيهما... ثم مر من تلك الفرجة بين جسد علام وباب الشرفة الزجاجي نحو الباب الخشبي الذي عبره منذ دقائق.

- يا حضرة الظابط..

نداء واهن من حنجرة العجوز الحازمة أوقفه من دون أن يلتفت.

- من بكرة الصبح تشوفوا طبيب شرعي تاني يخلص الموضوع ده...

- يعني إيه؟

- يعني زي ما سمعت... أنا ما بشتغلش في قضية وأنا إيديا متكتفة ورايا وحد بيعد عليّ النفَس... إذا ما كنتش هشتغل بحريتي في القضية دي يبقى بلاش منها، وأرجع لكرسيّ وترابيزتي وسجايري السوبر... وإذا كان على سيادة اللوا أنا هكلمه أعتذرله عشان ما يملصلكش ودانك برضه.

ابتلع الإهانة كما ابتلع ما قبلها.



وهل سيادة اللواء المبجل طفل صغير كي يصدق أن يده نظيفة من هذا؟

هو من حرص طوال عمره ألا يغضب سيادة اللواء والده... ولا سيادة اللواء المبجل ولا أيًا من سيادات اللواءات والعمداء الذين صعد على أكتافهم حتى أصبح هو.

هل ستمسي نهايته على يد كلمات من فم ذلك العجوز المتحذلق.

ثم إن هذا العجوز هو سيد من يعرف استخراج الأسرار من الجثث... هو من سيعرف كيف ومتى وأين حدث هذا.

عقله يخبره أن قليلا من التحكم مطلوب... كي يمر كل شيء كما يريد هو.

عقله أمره أن يلتفت إلى العجوز حريصًا على ألا يخلع نظارته الشمسية الأنيقة... وأرسل إشارات الصمت إلى كل أجزاء جسده كي تبني أسوارا تمنع انفعلاته من الفرار.

- اعتبر إن إيديك حرة... والمراقبة هتترفع من دلوقتي... وأنا مستني تقريرك قريب عشان نخلص من القضية دي.

ثم التفت من جديد ناحية الباب الخشبي.

- واقفل باب البلكونة كويس عشان الدنيا ما تغرقش... المطر هيبقى شديد حبتين النهارده.

وأغلق الباب خلفه... أغلقه كأنما يضربه ضربًا في بروازه الصلب... أغلقه مخرجًا فيه كل ما منعه عقله من إخراجه في وجه العجوز.

وجه العجوز الذي التفت ناحية زجاج باب الشرفة الذي تضربه الأمطار بلا هوادة... فقط ليرى أوراق الملف المتطايرة من غضب الرياح ودموع السماء.



ـ يا نهار اسود.. الملف زمانه بقى عجينة.

وخطى بهرولة سلحفاة نحو الشرفة محاولا إنقاذ الأوراق.

* * *

(٤)

ـ وبعدين سابها هي كمان؟

ـ ممم.

ـ ما تسيبي العصير ده وركزي معايا شوية الله يباركلك.

أزاحت الماصة من على طرف شفتها السفلى، وتناولت منديلا تمسح به بضع قطرات تناثرت من بقايا عصير ما يدعى بشيء ما من أسماء مشروبات الساحرات التي تهواها.

ـ كده كويس؟ قليت مزاجي ومش مكملاه.

ـ مش مكملة إيه... أنا مش شايف غير حاجات لونها أحمر وأخضر كلها تلج مجروش وفوقها كريمة هي كمان... ده عصير إيه بقى؟

ـ سموذي دراجون فروت بالكيوي وعليه أفوكادو.

ـ أفو إيه!

أطلقت ضحكتها الشبيهة بأشعة شمس ديسمبر عندما تزيح الغيوم الرمادية... ثم نظرت لي... ابتسامتها جميلة... صبوح... تشبه ابتسامة أمي عندما كانت توقظني في أيام مرضها الأخير كي أعطيها حقنة المسكن... تبتسم لي وأنا أحاول أن أكون بارعا وأعرف أني أؤلمها... لكنها كانت تبتسم... حتى عندما كان رأسها يرقد فوق وسادتها القطنية كانت تبتسم... حتى عندما أسلمت الروح كانت تبتسم.

ـ بتبقى زي العسل وانت بتضحك.



ـ لا أنا افتكرت أمي الله يرحمها... كانت ضحكتها شبهك كده.

ـ الله يرحمها... بس هو انت ما بتفتكرش غير الله يرحمهم بس؟

ـ تقدري تقولي ما فيش في حياتي حد أثر غيرهم... والواحد ما بيفتكرش غير اللي بيأثروا في حياته بس.

لوت شفتيها معترضة على كلامي، ثم تناولت الماصة من جديد وراحت تعب من ذلك السموذي.

بينما عقلي يعب ما قالته تعبئة فاخرة، ويضعه فوق رف ملمع جيدا في مخزن الوثائق القابع هناك.

ـ خلينا في الجد شوية... الكلام اللي انتي حكيتهولي عن الأخ ده وعلاقاته دي بتقول إنه مش سهل أبدا... أصل الراجل اللي يميل دماغ تلات بنات زي الفل لحد ما يغلطوا معاه ويحملوا منه كمان، يبقى راجل خطير... خطير لدرجة العبقرية.

رفعت يدها مشيرة بأصابعها الأربعة والماصة لا تزال على طرف شفتيها.

ـ نزلي إيدك ما توديناش في داهية.

نظرت إلى أصابعها ثم أزاحت الكوب في سرعة وضمتها إلى يدها الأخرى متنحنحة... وقربت وجهها مني بطريقتها الشبيهة بطفلة ماكرة... كأنها على وشك أن تخبرني أين خبأ ميدو قطة الجيران.

ـ هم الحقيقة أربع بنات... بس أنا ما عرفتش أقابل الرابعة.

ـ واشمعنى دي اللي استعصت عليكي؟

ـ عشان هي في مكان صعب أوصلّه يا ريس.

ـ فين يعني؟ مسافرة برة مصر؟



رفعت إصبعها إلى الأعلى، فوصلت رسالتها إلى رأسي.

- ماتت؟

- قبل ما جنابه يموت بسنة تقريبا... وموتة بشعة، ولو إنها بتحصل اليومين دول كتير.

- اتقلبت بيها العربية؟

- إيه ده؟ إنت كنت معاها ولا إيه؟

- لا، عشان قولتي بتحصل كتير بس.

ابتسمت رغم ما يوحي به الكلام من كآبة... شابة صغيرة قد تكون في نهايات عشريناتها أو أوائل ثلاثيناتها، ذهبت لأن سور الدائري يحتاج إلى تعلية، أو لأن سائق لوري أراد أن يمنح نفسه قليلا من الحكمة، فدخن لفافة بانجو كاملة ثم أتبعها بقرصين مستديرين جعلاه يستلقي فوق بساط الريح.

- الصدفة الجميلة بقى... أو هي مش جميلة أوي... إننا نعرفها.

- إننا؟ طالما جمعتي يبقى حد من الناس اللي بتنشر معانا أو حد من الناس اللي كانوا بيشتغلوا معاكي وعرفتيني عليهم.

- لا.

- تبقى أنتيمتك.

- إن شالله انت.

- أمّال مين اخلصي؟

زاد اقترابها من وجهي حتى لفحتْ أنفاسها المعطرة برائحة الموز والفراولة وجهي... ورائحة البرفان الأنثوي المعتق في حجابها تسري إلى أنفي.



- فاكر المكالمة إياها يوم ما اتفقت مع مجدي على الموقع الجديد؟

- أنهي فيهم؟

- المكالمة اللي جت على تليفوني.

- آه فاكرها، بتاعت الست اللي كانت عايزاني أساعدها في موضوع بنتها... وأنا قولتلها إني بطلت حدوتة شيرلوك هولمز، وهي قعدت تزعق وتعرض عليّ فلوس وأنا اعتذرتلها بأدب.

- أكرم؟

- قصدي قفلت السكة في وشها... آه فاكرها.

- أهي هي دي أم البنت الرابعة.

- يعني؟

أومأت برأسها موافقة وهي تعود بجسدها كله إلى الخلف محدقة في وجهي... وهنا تذكرت الاسم كاملا: مريم مهران العيسوي.

* * *

«وقد قام الدكتور والنائب/ مهران العيسوي بافتتاح الفرع الجديد لسلسلة معامل الحياة في التجمع الخامس، في حضور السيد الدكتور وزير الصحة، والسيد وزير الصناعة، والسيد اللواء مندوبًا عن رئاسة الجمهورية.

وقد صرح بأن التكنولوجيا الجديدة، التي توفرها معامل الحياة، سوف ترتقي بمستوى ودقة التحاليل الطبية في مصر، ما يوفر... ... ...

وكان الدكتور مهران العيسوي قد تقدم إلى السيد رئيس الوزراء بالشكر على ثقته في ترشيحه لمنصب وزير الصحة، إلا أنه قد اعتذر لسيادته، وذلك لحرصه على عدم جمعه بين اهتمامه الشديد بتطوير



سلسلة المعامل التي يمتلكها، وبين المنصب العام، ما يخلق جوا من... ... ...»

خبر في جريدة قومية واسعة الانتشار.

* * *

(٥)

- صباح الخير يا ولد يا شرقاوي.

- الريس... أنا مش مصدق نفسي... والله التليفون زغرط من الفرحة.

نظر دكتور علام نحوي وعلى وجهه أمارات الازدراء... لطالما كان فارسًا من ذوي الدروع الأخلاقية الحميدة... وهؤلاء يكرهون النفاق كأنه الموت نفسه!

- إنت فين كده؟

- في العيادة وطالع عالمستشفى كمان شوية.

- طيب عدي عليّ في المشرحة نشرب قهوة وندردش شوية.

- تؤمرني يا كبيرنا... نص ساعة بالكتير وأكون قدامك.

أغلق دكتور علام الخط... الصوت كان يأتي من مكبر الصوت فيملأ جنبات المشرحة حتى كاد يوقظ الأموات من سباتهم.

- عيل أفّاق طول عمره.

- هو حضرتك كنت بتكلم دكتور إبراهيم الشرقاوي، صح؟

- آه هو.

- وبتقول عليه عيل وولد والحاجات دي...

نظر لي نظرة ذات معنى، فصمتُّ مطبقا شفتي فوق بعضهما،



تتوسطهما سيجارة سوبر منحني إياها على سبيل تزجية الوقت... بينما راح يجوب بعينيه جنبات المشرحة.

- فاكر؟

- مقدرش أنسى يا دكتور.

- هو عماد فين دلوقتي؟

الاسم ذاته يثير لدي الكثير... الكثير من الشجن والحزن والذكريات الضاحكة والأليمة... الكثير من الدماء وطلقات الرصاص وحوادث السيارات وشطائر الفول ومباريات الأهلي والزمالك وأحجار المعسل... مزيج من كل شيء.

- عماد في قطر.

- بيعمل إيه هناك؟

- بيشتغل مدير عمليات في شركة أمن خاص، وبيقبض بالدولار عقبالك كده.

- وده من إمتى؟

- من ساعة ما حاولوا يخلوه شخشيخة.

أومأ برأسه موافقًا ومستحسنًا كلماتي... وامتص عقب سيجارته ليخرج نفسا طويلا لا يقوى عليه شاب في أواسط ثلاثيناته مثلي.

ومثل ذلك الجسد المسجى فوق طاولة الفحص.

مددت ساقي أمامي على سبيل التسلية، ورحت أحرك مشط قدمي داخل الحذاء الكاوتشوك المرن.

- هو تقرير السموم والمخدرات والمنومات والكلام ده ما قالش حاجة؟

- فيه شوية حاجات صغيرة كده بس مفيش حاجة لافتة للنظر...



حاجات كلها عادية وتلات تربع الشباب دلوقتي بيتعاطوها... مفيش إدمان قصدي.

- ومفيش مخدر مثلا خلاه مسلم الإرادة كده وموافق على اللي اتعمل فيه؟

- الحاجات دي ما بنكتشفهاش لوحدنا... لازم يبقى عندنا نقطة شك واحدة نتحرك إحنا من خلالها... لكن مش هنعمل على دمه كل التحاليل الممكنة ومفيش أي أثر لأي حاجة مريبة.

ثم أطفأ السيجارة وقد انتهى منها... هذا العجوز اجتاز ثلاثة وستين ربيعًا وشرب سيجارة سوبر كاملة بينما أنا في ربعها الأول!

- هي الساعة كام دلوقتي؟

- يعني تيجي بتاع تسعة مثلا.

- تيجي بتاع يعني إيه... الساعة كام بالضبط؟

أخرجت هاتفي المحمول لأجد خمس مكالمات فائتة من سمر، لم أستمع لرنينها لأنني صرت أصمَّ أو أبلهَ... والساعة الإلكترونية الرقمية تشير إلى التاسعة وعشر دقائق.

أومأ برأسه لي على جانبه الأيسر فقط... فنظرت له مستغربًا... هل أصيب بمرض ما مؤخرا يجعله يأتي بمثل هذه الحركات العصبية... أم تراه السن الذي...

- إنت متنح ليه كده؟

- معرفش... حسيت إن حضرتك تعبان وبتعمل حركة عصبية غريبة كده.

قلتها مقلدًا حركته الأخيرة، فصب جام غضبه عليّ...

- عصبية إيه ونيلة إيه... أنا بشاورلك تخش جوة تستخبى لحد ما



شرقاوي يخفى من هنا.

نهضتُ مسرعًا كأنما طفل يأمره أبوه أن يخلد للفراش حتى لا يستمع لكلام الكبار... ودخلت إلى غرفة المكتب الملحقة بالمشرحة، وربضت على الأرض في مكان يمكنني أن أسترق السمع منه.

خطوات بكعب حذاء رجالي يبدو جديدا لتوه... وصوت جهوري مرتفع يوشك أن يوقظ الموت فعلا.

- عمنا وكبيرنا.

- إزيك يا شرقاوي؟

- زي الفل يا ريس... والله وحشتنا قعدتك وسطينا... لولا الملامة كنت قولت إن المشرحة ضلمت لما سيبتنا.

- بكرة تنور بيا يا أخويا لما أجيلكم هنا للأبد.

- تف من بقك يا عمنا... لازمته إيه الفال الوحش ده؟

لا أرى وجهه... لا أسمع سوى صوته الجهوري الذي لا يخلو من لمحة تدخين المعسل المميزة... حشرجة صوت يوسف شعبان في أواخر أعماله.

- أنا وصيت الواد حمامة يعملّنا اتنين قهوة على ذوقك.

- طب اقعد بقى وبطل شغل السباكين بتاعك ده... عايزك في كلمتين مهمين.

- إذا كان كده يبقى أولع سيجارة مع القهوة ونقفل الباب ده ونتكلم.

صوت سحب مقعد معدني يصر على الأرض فتصيبني قشعريرة المعدن الشهيرة... وصوت صينية توضع فوق المكتب المعدني ثم يغلق الباب.

- خير يا دكتور؟



صوت رشفات قهوة مبالغ فيها... هذا الرجل مبالغ فيه بشكل كبير... صوته وردود أفعاله وحتى طريقته في رشف القهوة... لو كانت سمر هنا لنعتته بـ(الأوفر أوي) وهي تلوي شفتيها في تقزز.

- خير إن شاء الله... تفتكر كده من سنة كان فيه حادثة مشهورة أوي لبنت عربيتها اتقلبت بيها من عالدائري، ووكيل النيابة شك في الموضوع وطلب لها تحليل مخدرات وكحول وتشريح وحاجات كده... حتى دي كانت الوحيدة اللي أهلها وافقوا على حاجة زي كده.

- أنهي واحدة فيهم دي يا دكتور... المواضيع أصلها بتخش في بعضها عندي مؤخرًا.

- هي حادثة واحدة وانت اللي كنت ماسكها يا إبراهيم.

رشفة قهوة خفيفة... هذه للدكتور علام... تبعها الصوت الجهوري وهو يحاول إشعال سيجارة بقداحة مستعصية.

- من سنة... أعتقد ما كانش في حاجة بالمواصفات دي غير مريم بنت مهران العيسوي.

- أيوه هي دي.

- آه فاكرها طبعًا... ده أبوها حتى كان بيحلل العينات عنده في المعامل الجديدة وبيجيب النتيجة تاني يوم.

- عينات رسمية تخرج تتحلل في معامل خاصة إزاي؟

ضحكة متحشرجة ثم بصقة تبدو أنها كانت على الأرض، ومسحت بحذاء مبالغ فيه مثل صاحبه.

- هو حضرتك مش من مصر ولا إيه... ده مهران العيسوي يا كبيرنا... ده بيتعشى مع وزير الداخلية كل يوم.

- إن شالله يكون بيتعشى مع رئيس الجمهورية... دي إجراءات



قانونية وحاجات زي دي لازمها موافقات وروتين وبلاوي زرقا.

ابتسامة ساخرة كادت تتحول على وجهي إلى ضحكة مجلجلة... يبدو أن دكتور علام قد نسي أو شاخ فعلا... أصبح لاعب كرة معتزل فقد حساسية الملعب فعندما أعادوه إلى الملاعب من جديد قذف بالكرة إلى المدرجات.

- طيب نسيبنا من الموضوع ده... أنا عندي كام سؤال بخصوص البنت دي.

- اسأل يا كبير... ولو إني مش عارف إذا كنت هقدر أفيدك ولا لأ... الموضوع اتقفل واتحفظ وخلاص.

- هو سؤال واحد... لأ سؤالين عشان أكون أكثر دقة.

صوت ورقة تفتح... ودكتور علام يتنحنح كأنما على وشك الدخول إلى حمام عمومي!

- كان فيه إيه في دمها؟

- الكلام ده ليك ولا للقضية؟

- طالما قافلين علينا الباب وفي بيتنا يبقى الكلام لمين... مش عايز غباوة؟

- فلوكستين.

- فلوكستين إزاي!

سعلة عالية تبعتها بصقة أخرى... يبدو أن إبراهيم الشرقاوي قد درس الطب في سور مجرى العيون وليس في كلية طب محترمة!

- بروزاك... فلزاك... ديبريان...

- خلاص... كفاية بروزاك وانا هفهم لوحدي... طب وإيه المشكلة؟ هو في حد بيدمن البروزاك؟



- في ٣٠٪ من الحالات بس يا دكتور... إنت عارف إني كنت غاوي فارما.

- وهي كانت من الـ ٣٠٪؟

- دي من قلب الـ ٣٠٪ كمان.

صوت المقعد يئن من عودة دكتور علام بجسده إلى الوراء... أغمضت عيني لأتبين الكلام أكثر كما كنت أفعل وأنا أتصت على أبي... حيلة نافعة دومًا.

- السؤال التاني بقى.

- وآخر سؤال يا كبير عشان عندي معاد ولازم ألحقه.

- هو آخر سؤال ما تقلقش... البنت كان فيها حاجة؟

- حاجة زي إيه؟

لحظة صمت... يبدو أن دكتور علام نسي أنني هناك لأسجل كل ما يحدث، وأنني أسجل صوتًا فقط بلا صورة.

- السؤال ده غريب أوي وأنا مش هعرف أجاوبه... بعد إذنك يا كبير... ليلتك سعيدة.

- اقعد يا إبراهيم يا شرقاوي... ما تفتكرش إني عشان عجزت مش هعرف أديك على دماغك وأقعدك... أنا أحمد علام يا ولد.

صوت حركة المقعد مرتين ثم هدوء تام.

- ودلوقتي جاوب على سؤالي.

- وده هيفيد في القضية بإيه؟

- وانت من إمتى بتسألني أسئلة زي دي يا إبراهيم؟

- مقصدش يا ريس، بس الموضوع ده فيه دخول في أعراض، والبنت



ماتت واتدفنت وعند ربها اللي سترها يحاسبها... غير إن أنا مش قد أبوها ولا قد إيده التقيلة... خليني أقضي الخمستاشر سنة اللي فاضلين في هدوء وأغور في داهية من هنا.

- هو أنا يا حمار بسألك السؤال ده عشان أحاسبها ولا جبت سيرة أبوها... أنا عايز أعرف معلومة هتقولهالي بالراحة وتقوم تغور في داهية براحتك.

زفرة عالية... حتى تظن أنها كالبخار الخارج من براد كهربائي... هذا الرجل مبالغ فيه حتى في زفيره!

- آه يا كبير...

- في الكام؟

- في التاني، وما تسالنيش في حاجة تانية... وبعد إذنك بقى.

صوت المقعد يتحرك في إزعاج وخطواته تتحرك.

- قول لحمامة ولا عصفورة يعملي اتنين قهوة.

- هتشرب اتنين قهوة لوحدك... الضغط يا كبيرنا.

- وانت مالك... أنا حر في ضغطي... اعمل اللي بقولّك عليه واخفى من هنا.

- براحتك، سلام.

صوت الخطوات الراقعة فوق البلاط الحكومي الرخيص... وباب المشرحة يبقى مواربًا ملقيًا بضوء أصفر بارد من فتحته الصغيرة على السقف.

- خلاص مشي... اطلع.

نهضت متحركًا نحوه... وأخذت المقعد الذي كان يحتله ذلك الشرقاوي جالسًا أمامه أحدق في ملامحه.



ـ مالك يا دكتور.

ـ مفيش... شوية إرهاق بسيطة كده... المهم دلوقتي الموضوع وضح... الواد ده كان على علاقة كويسة أوي بالبنت دي... علاقة كانت مودياها في ستين داهية... التقرير اللي اتكتب واتحفظت بيه القضية بسبب ضغوط أبوها على أمها ـ اللي كانت مصممة تكمل في القضية ـ قال إن الوفاة نتيجة تهشم في القفص الصدري وتهتك في الرئة نتيجة الاصطدام بجسم صلب... وتقرير المكتب الفني قال إن اختلال في عجلة القيادة أدى إلى اصطدام وبعدين اتقلبت العربية... ومفيش سيرة لا مخدر ولا بروزاك ولا غيره... الموضوع ببساطة إن فيه تقرير تاني هو اللي طلع من هنا وبعدين اتغير قبل ما يوصل النيابة، وأنا كنت بتأكد إنه صح... البنت كانت بتتعاطى فلوكستين بشكل مستديم... وتقرير المكتب الفني بيقول إن إزاز العربية كان دايب من الأطراف نتيجة حمض هيدروفلوريك... يعني إحنا هنا بنتكلم في إلهاء أدى إلى إن البنت فقدت سيطرتها على العربية فا اتقلبت بيها وماتت... يعني المقصود ما كانش قتلها صريح... المقصود كان إن العربية تتقلب وبس... ولو ماتت يبقى خير وبركة.

ثم صمت فجأة وضاقت عيناه، وأشار إلى طاولة الفحص جواري لأرى طرف إصبع يبرز من أسفل الغطاء وأسفله ملف أزرق صغير.

ناولته الملف ففتحه بهدوء ونظر إلى صفحة فيه وشرع يقرأ قليلا، ثم رفع عينه نحوي ونظارته منزلقة على قصبة أنفه:

ـ فلوروديرما.

ـ إنت بتحضر أرواح يا دكتور.

رفع صورة مطبوعة تبدو كأنها تقريب من أسفل الأذن وأعلى طرف الفك، وبها بقع حمراء أشبه بحب الشباب.



ـ مش فاهم!

ـ الصور دي إيرين لقطتها امبارح... وكانت سايباهالي في الملف أراجعها بعد ما طبعتها... أنا كنت شاطر في الجلدية أوي زمان وشوفت حالات زي دي كتير بعد عمليات بسيطة فيها بينج موضعي... الحالة دي اسمها فلوروديرما Fluoroderma... مرض جلدي بيجي نتيجة التعرض للفلور ومركباته، زي الفلورايد بتاع معاجين السنان... أو التعرض للسيفوفلوران Sevoflurane.

ـ ويطلع إيه ده؟

ـ ده مخدر أهبل كده بيستخدموه للعيال الصغيرين والعالم إلى دماغها خفيفة... ريحته حلوة عاملة زي البونبوني بتاع زمان اللي كانوا بيقولوا عليه أرواح... الجرعة الزيادة منه ممكن تخدر حد بالغ بس مش بشكل كامل... وده الأثر الجانبي الوحيد ليه، لأنه ببساطة ما بيظهرش في تحاليل الدم.

نظرت من جديد إلى الصورة المطبوعة، بينما علام ينهض كالديناصور الغافي ويتجه نحو الطاولة، رافعا الغطاء من على وجه خالد الشمعي المرقع برقعتي الحمض بين عينيه ورأسه، وراح يستخدم عدسة مكبرة وهو يفحص خلف أذنه وفمه ولسانه وأغشيته المخاطية.

ـ يعني حضرتك تقصد تقول...

ـ أيوه... الولد ده اتخدر بالسيفوفلوران قبل ما يتعمل فيه اللي اتعمل... وده خلاه في حالة إعياء شبه منومة ساعة ما اتعمل فيه كده.

ـ أو يكون هو اللي شمه عشان ما يحسش لما يعمل في نفسه كده.

ـ بص يا أكرم... طالما الموضوع دخل فيه مخدر ما بيبانش في الدم وستات حوامل ماتوا والهم ده... يبقى مفيش انتحار... إحنا قدام



جريمة قتل واضحة.

ثم عدل من وضع نظارته أمام عينيه الرماديتين.

- جريمتين لو شئنا الدقة.

سرح بعينه قليلا ثم أعاد النظر في الملف وهو يشعل سيجارته السوبر الخمسين.

- هيدروفلوريك... فلوكستين... سيفوفلوران... الحاجات دي في بينها عنصر مشترك.

وقع حروف الفاء واللام والراء لا تخطئه أذن هنا.

- أعتقد يا دكتور من معلوماتي البسيطة إن كل المركبات دي فيها...

- فلور... كلها من مركبات الفلور... طب إيه الرسالة اللي عايز القاتل يوصلها هنا؟

- مش لازم يكون فيه رسالة يعني... مش كل القتلة زودياك يا كبير.

نظر نحوي من جديد ونظراته تخلو من الاقتناع... وعدل من وضع نظارته وهو يضع الملف إلى جواره نافثا سحابة كثيفة من مدخنة الطوب التي يدعوها سوبر.

مددت إصبعي بحركة آلية لأعدل من وضع نظارتي فقط لأكتشف أنني لا أرتديها!

- نضارتك فين صحيح؟

- مش عارف غالبًا نسيتها في البيت أو وقعت مني في مكان ما... أنا بقالي فترة ما باخدش بالي منها أوي... الظاهر إن تمارين اليوجا بتحسن النظر كمان.

- ألا صحيح، أنا ما رضتش أحرجك قدام الآنسة يومها... يوجا إيه اللي انت بتعملها دي؟



ـ والله يا دكتور أنا كنت يوم قاعد بقرا في كتاب عن نقط الشاكرا واليوجا والحاجات دي، وبعدين جالي خاطر كده قولت لما أجرب.

ـ وفيه تحسن بقى؟

ـ آه، يعني.

مط شفتيه متقززا... ثم أشعل سيجارة طويلة ليزيح مرارة كلماتي من حلقه.

بالنسبة لمن هم مثل الدكتور علام... الطب الذي لا يحلل في معادلات وتحاليل وأرقام وحروف لاتينية متضخمة ما هو إلا نصب ودجل... هذا الرجل يضع الحواة وأطباء الشاكرا والإبر الصينية والشيخة خديجة المغربية والعطارين في صف واحد... كلهم عنده سواء.

ـ طيب أنا عايزك تخش على النت ولا تخش على واحد صاحبك ولا تتصرف بأي طريقة، وتجيبلي المعلومات اللي تقدر عليها كلها عن فارما وورلد دول... عايز أعرف إذا كانت الناس دي ليها في توريد الأدوية اللي هكتبلك اسمها أو أي مادة فعالة منها... أنا عندي معلومات إنهم بيعملوا بيزنس كبير أوي، وأكيد ليهم علاقة بالموضوع ده.

أومأت برأسي مطيعا كأنني أتلقى تعليمات مديري الفني قبل أن تطأ قدماي أرض الملعب لأمزق شباك الخصم... بينما المدير الفني يرتدي سترته السوداء الصوفية على عجل.

ـ أما أنا هسيبك بقى وأروح مشوار كده.

ـ طيب آجي معاك بدل ما تروح لوحدك؟

ـ ليه هو أنا هتوه لو رايح لوحدي... وبعدين المشوار ده انت بالذات ما ينفعش تروحه معايا.



ارتسمت أمارات الاندهاش على وجهي وأنا أتابعه يضع سجائره في جيب السترة.

- واشمعنى المشوار ده يعني؟

- ما ينفعش أدخل على مهران العيسوي وفي إيدي صحفي... ولا انت إيه رأيك؟

* * *

- **التاريخ الدراسي**

(١)

الساعة تقارب الحادية عشرة

وأنا أتمشى عابرا شوارع السيدة زينب متجهًا إلى ذلك المقهى القابع في مواجهة شارع قدري... الشارع الذي سوف أتمشى فيه نحو شقة القلعة حيث تتمركز حياتي كلها.

أجلس على المقهى منتظرًا بائع الجرائد يحمل إليّ واحدة أو اثنتين في طبعتهما الأولى... أشرب معهما قهوتي وقليلا من المعسل، ثم أبتاع شطيرتي فول بالزيت الحار من العربة التي يجلس أبو رامي خلفها، بسجائره المحلية وكوب الشاي الخمسينة الأبدي في يده... بينما زبائن آخر الليل مثلي يصطفون حول طاولة معدنية يتبادلون خبراتهم العريضة طوال اليوم... ويلعنون زوجاتهم وأطفالهم والحكومة والزمن ثم يتفرقون في صمت.

رفعت يدي لذلك النادل صغير الحجم الذي صار يعرف طلبي، فجاءني بالشيشة ذات المبسم الزجاجي - لأنني لا أحب ما يطلقون عليه المبسم الطبي - وكوب قهوة مزدوج يطفو على وجهه وجه من البن، بجواره كوب ماء متسخة أطرافه.



بينما تلك السيارة الكيا السوداء، من طراز أصبح ثمنه يزيد على ربع المليون بقليل، تقف في الجهة الأخرى أمام أبواب محل سوبيا توتو الشهير، والذي أغلق منذ دقائق.

زجاج أسود يُخفي ما خلفه... ونقاط مياه قليلة تسيل أسفل السيارة تعني أنها هناك منذ وقت ليس بالقصير، وأن تكييفها يعمل كما يجب في هذا الطقس المائل للبرودة.. بغض النظر عن الحاجة الى تكييف في هذا الطقس!.

وضعت مبسم الشيشة بجواري على الطاولة، ونهضت عابرا الطريق نحو السيارة ذات الزجاج المعتم، ثم نقرت زجاجها بطرف إصبعي لينزاح كأنه تلقى كلمة السر.

- خير يا أستاذ فيه حاجة؟

- خير انت يا فندم... حضرتك ماشي ورايا من القصر العيني لهنا، وبقالك ربع ساعة واقف ومشغل الانتظار... أنا قولت يمكن تعرفني ولا حاجة.

وجه جامد مشدود كأنما نحت من جرانيت جاف... وشارب كث منمق ونظارة شمسية في الثانية عشرة صباحا!

هذا ضابط شرطة إذن!

- هو فيه حد ما يعرفكش يا أستاذ أكرم.

- كتير والله ما يعرفونيش... بس لو حضرتك أمن وطني فأكيد تعرفني وتعرف اللي خلفوني.

ثم نظرت إلى الميدان الخاوي إلا من رواد القهوة وبائع الصحف... جو مثالي لخطفي داخل السيارة السوداء وإخفائي قسريا في أحد النزل المظلمة، واستحلاب المعلومات مني كبقرة يافعة، ثم إلقائي بعدها في نفس الميدان وأنا...



- طب ما حضرتك تتفضل نشرب حاجة مع بعض وبعدها آجي معاك مكان ما تحب لوحدي من غير تهزيق.

ثم مددت يدي وفتحت باب السيارة الذي كان - وبالدهشتي - غير مغلق بواسطة الغلق الإلكتروني للسيارة... وأشرت له بيدي في سخرية كي يهبط من عليائه نحو الإسفلت.

خلع نظارته الشمسية الأنيقة ونظر لي نظرة جامدة تقفز السخرية من كل مكوناتها قفزًا... ثم هبط من السيارة فاردا قامته، فأغلقتُ الباب وأنا أشير له كي يتقدمني ناحية المقهى.

من أين أتتني الجرأة كي أفعل ذلك؟

يتقدم إلى جواري فاردا قامته الفارعة... وعيناه تجوبان المكان... يعبر الشارع بخطوات طويلة أحاول مجاراتها، ثم يجلس إلى جواري وظهره مفرود كأنه ذلك الفتي في كتب اللغة العربية للمرحلة الابتدائية.

- سيكا... هات للباشا قهوة سادة سكتّو... وغيّر الحجر ده.

هرع النادل الشاب نحو المقهى كي يحضر القهوة، بينما وضع الضابط ساقًا فوق أخرى وهو يشعل سيجارة أمريكية ذات فلتر بني، وينفث دخانها في هدوء.

- وعرفت منين إنها سادة؟

- دي مهارات خاصة بقى يا باشا.

- لا بجد حقيقي عرفت منين؟

أسحب أنفاسا متعددة من المعسل، ثم أقول وأنا أنفثها مرة واحدة كي أمنح كلامي سمت الحكماء العالمين ببواطن الأمور.

- منطقة البطن عندك متقسمة صح... مفيش فاسكيرل فاتس



يعني... وده معناه إنك مالكش في النشويات والسكريات الكتير... وتحت عينك لونه غامق شوية يعني مدمن قهوة زي حالاتي، غير إن البقعة اللي على القميص وإنت حاولت تنضفها من شوية ما بقعتش فعلا بس لسه غامقة، يعني القهوة ما كانش فيها سكر لما نقطت على القميص... دي شوية استنتاجات بسيطة يعني.

- لا استنتاجاتك كويسة أوي... بتفكرني بظابط معرفة كان زيك كده لحد ما استقال ودخل المصحة.

- كلنا آخرنا المصحة برضه يا باسل باشا.

التفت نحوي وعيناه تضربان عيني بنظرات ممزوجة بالدهشة والغضب.

- طب ما انت كمان عارفني أهو.

- لا يا باشا ده مجرد استنتاج... أصل الدكتور علام رغم إنه عجز لكن ما خرفش... وأنا بثق جدا فيه لما بيوصف وش حد... فا أكيد مفيش اتنين ظباط في مصر عندهم نفس الملامح ونفس طريقة الكلام ونفس المشية... ما هو مش خط إنتاج أصله.

ملامحه لم تتغير... يصعب توقع إن كان هذا الشاب غاضبًا أو سعيدًا أو مصابًا بالإسهال... لديه قدرة فائقة على ضبط انفعالاته.

جاء النادل بالقهوة ووضعها مع كوب ماء يلمع من شدة تنظيفه، ورفع يده نحو رأسه محييًا الباشا... أيها الوغد... تحضر قهوتي بماء مغلي في دقيقتين، بينما قهوة الباشا تأتي على مهلها، وكوب الماء غُسل حتى صار أنظف من قطرات المطر!

- طيب أنا عندي طريقتين في توصيل اللي أنا عايزه... فيه طريقة مباشرة وهتقصر المسافات بس ناس كتير بتضايق منها... وفيه طريقة تانية هتاخد شوية وقت بس أكتر فاعلية،



ثم التفت نحوي بجسده وهو ينظر إلى عيني...

ـ تحب أنهي طريقة فيهم؟

ـ والله أنا طول عمري أحب المباشرة... ده أنا عيبي الأساسي إني صريح ومباشر أوي مع الناس.

قلتها بتلك الطريقة المائعة التي تشبه طريقة ممثلات السينما... فظهر الاشمئزاز على وجهه للحظة... لحظة عاد بعدها قالب الجبس إلى وضعيته.

ـ طيب جميل أوي... إنت عارف إن أنا الظابط إلى ماسك قضية الواد بتاع شركة الأدوية.

ـ تمام.

ـ وعارف إن أنا اللي طلبت إن دكتور علام مخصوص هو اللي يشتغل عليها.

ـ أكيد.

ـ وأظن إنك عارف إن الدكتور علام تقاريره ما بتتكتبش إلا لما يفحص ويمحص في كل حاجة تخص الجثة وتاريخ حياتها... وإنه مش هيكتب التقرير إلا لما يخلص على كل الاحتمالات حتى لو خلص علينا جميعًا.

ـ طول عمره.

شبح ابتسامة ظهر على ركن فمه... يبدو أن ردودي أثارت قليلا من الكوميديا في نفسه... أو أنني أبدو أبلةَ أكثر من اللازم.

ـ وطالما أنا لعبت معاه اللعبة دي... يبقى لازم ألعب بقواعده هو لحد الآخر... ما بقاش عندي اختيار تاني... عشان كده أنا جت لي فكرة كويسة رغم إنه ممكن ما يقبلهاش مني أنا... هيحصل إيه لو



حطينا اللي عندي على اللي عنده.

- بمعنى؟

- بمعنى إن هو، أو بمعنى أصح إنتم بتشتغلوا في اتجاه وبحرية تامة... وأنا بشتغل في اتجاه تاني... ليه ما نحطش اللي في اتجاهاتكم على اتجاهي وننور لبعض الطريق؟

ضحكة ساخرة صدرت مني لم تفتت في قالب الجبس شيئا... لا زال يصوب نظراته الجامدة نحوي.

- بص يا باسل باشا... أنا وانت والكوباية اللي قدامك دي عارفين إن الاتجاه بتاعك فاضي... مفيهوش حاجة... وإنك ببساطة عايزنا نتحرك تحت عينك ومن خلالك من غير ما تبقى مضطر إنك تراقبنا طول الأربعة وعشرين ساعة... وأنا موافقك على كده في حالة واحدة بس.

- اللي هي؟

- اللي هي إنك فعلا تبقى عايز تحل الموضوع صح... مش عايز تقفل ورقك وقضيتك وتخش في اللي بعديها.

- وتفتكر يا ألمعي يا عبقري إني لو عايز أقفل القضية كنت هشيل نفسي جميلة لشلة لواءات ما بينسوش الجمايل أبدا... وكنت هرجع مستر علام هولمز من التلاجة عشان يمسك هو القضية... أنا زيي زيه عايز الموضوع يمشي صح ويتقفل صح... حتى لو طريقتنا مختلفة.

رحت أحدق في وجهه من خلف نظارتي... ملامحه الجامدة ووجهه الشبيه بقناع جبسي من العصور الوسطى وأطرافه الجامدة المتصلبة لا توحيان بصدق أو كذب... كاشف المعادن الذي يعمل داخلي لم يلتقط إشارات من جسده... للمرة الأولى في حياتي الحافلة لا أعرف



كيف ألتقط إشارات الكذب من أحدهم.

- طيب انت عايزني أبلغك بالمستجدات من وراه مثلا؟

- ما بلاش نضحك على بعض يا أكرم... إنت ولاءك لعلام طبعًا مش ليّ... أنا عايزك ببساطة توصلّه الصورة بطريقتك... وأنا هستنى منك الإشارة اللي تدخلني جوة اللعبة معاكم بالقواعد الجديدة.

- وإذا الإشارة ما جاتش يا باشا؟

ابتسم... ابتسامة عريضة حتى كاد وجهه يتشقق ويسقط على حجره حطاما.

ابتسامة أعرف معناها جيدا حتى من قبل أن يتم كلامه.

- ساعتها اللعبة كلها هتتغير... لأن ببساطة اللعبة اللي ما تعجبنيش أنا ما بلعبهاش.

ثم أخرج من جيب قميصه المشدود فوق جذعه الرياضي قطعة بلاستيكية، وضعها بجوار كوب القهوة الذي لم يلمسه.

- وده عربون حسن النية... الفلاش ده هتلاقي عليه شوية حاجات بسيطة كده من الاتجاه بتاعي... حطها على الحاجات اللي انت وصلتلها من الاتجاه بتاعكم... ولما الدكتور تعجبه القواعد الجديدة كلمني... بس بسرعة عشان أنا بالي قصير أوي... وما بحبش الانتظار الكتير... آه بالمناسبة... كل حاجة بتبدأ من هناك.

ثم أشار إلى صيدلية أغلقت أبوابها على الجانب الآخر، فنظرت نحوها ماضغا كلماته، والتفت ناحيته لأجده قد أخرج سيجارة أخرى أشعلها ونفث دخانها في هدوء وهو يرفع قامته من فوق المقعد البلاستيكي، وأخرج من جيبه ورقة بخمسة جنيهات دسها أسفل كوب القهوة الممتلئ ومال بجسده عليّ قائلا:

- بالمناسبة... أنا قهوتي زيادة... زيادة جدا يا أستاذ هولمز.



ثم منحني ابتسامة ساخرة دامت لثوان، واختفت من جديد خلف قناعه الجبسي وهو يدور بجسده عابرا الشارع نحو سيارته.

وأنا أنظر إلى تلك القطعة البلاستيكية التي ما زالت قابعة بجوار كوب القهوة الممتلئ.

* * *

(٢)

يصعب على من يرى سمر وهي تعبر باب الجامعة أن يميزها عن باقي الطلاب العابرين معها، ربما يبدو هذا أكثر صعوبة عندما ترتدي الجينز والحذاء الرياضي الأبيض، وتخفض من درجات الأصباغ على وجهها المستدير.

تدخل ماشية في تعجل كأنها فوتت محاضرة آخر العمر... وتقترب من مبنى كلية الصيدلة ثم تخرج هاتفها المحمول وتكتب بكلتا يديها وتضغط على الإرسال، ثم تنتظر لدقيقة حتى يأتيها الرد... وما إن ترفع عينيها حتى تجد فتاة تشبهها تقريبًا عدا أن لها شعرًا قصيرًا مصففًا بعناية.

أقبلت عليها وقبلتها محتضنة إياها كأنهما لم تتقابلا منذ قرن... ثم شدتها من يدها وأجلستها فوق مقعد خشبي عريض.

- إزيك يا بطوطة... يخرب بيت عقلك انتي فين كل ده؟

- يعني انتي كلفتي نفسك يا جزمة وفكرتي تكلميني تسألي عن فاطمة الغلبانة؟

- غصب عني والله يا بطتي... الشغل مبهدلني ما بلحقش آخد نفسي... المهم طمنيني عليكي... فيه جديد؟

رفعت يدها اليمنى لتريها خاتمًا ذهبيًا لامعًا يلتف حول بنصرها، وعلى



وجهها ابتسامة انتصار كأنها قائد روماني مظفر.

- إيه ده يا بنت اللذينة... عملتيها من غير ما تقوليلي؟

- هعمل إيه بقى... كانت حاجة عالضيق كده... وانتي إيه مفيش جديد؟ طمنيني.

ابتسامة على وجهها رسمت منحنى تناسب عكسي مع تلك النظرة الحزينة المرسومة فوق عينيها الواسعتين.

ماذا ستقولين لها يا سمر؟

ستقولين إنك واقعة في حب ذلك الأخرق عديم الإحساس الغارق حتى أذنيه في مستنقع الذكريات الأليمة... ستقولين إنك على استعداد أن تتبعيه إلى آخر العالم، بينما هو لا يريد سوى أن يموت في صمت حتى يلحق بمن ماتوا.

ستقولين إن مثال الدجاجة الذي ألقاه ذلك العجوز المحنك ينطبق حرفيًا عليه وعليكِ... دجاجات مذبوحة تنتظر فقط أن تفهم أنها ذُبحت وانتهى أمرها.

ستصمتين يا سمر... وتعودين إلى أرض الواقع.

- سيبك مني شوية... خلينا في المهم.

- اؤمر يا قمر وبطة تنفذ.

- جبتيلي قرار الواد إلى قولتلك عليه.

أخرجت فاطمة من حقيبتها القماشية جهاز كمبيوتر لوحي صغير وراحت تعبث بشاشته قليلا...

- خالد عوض مصطفى الشاكوري... ٢٣ سبتمبر ١٩٨٣... متخرج بتقدير جيد جدا... ما كانش له أي نشاط... لا شارك في فريق تمثيل ولا عمل مجلة حائط ولا حتى لعب في فرقة كورة... لا كان



إخوان ولا اشتراكي ولا سلفي ولا أي حاجة... الخلاصة كان من البيت للكباريه ومن الكباريه للبيت.

تعالت ضحكاتهما حتى لفتت انتباه المارين بهما، فانتبهت فاطمة ووضعت أصبعها فوق شفتيها المصبوغتين لتخفض سمر من صوت ضحكاتها.

- طيب وبالنسبة للسيكو سيكو.

- السيكو سيكو أبيض يا ورد... مفيش غير البت اللي كان مصاحبها من وهو في إعدادي ومالوش أي علاقات لا يمين ولا شمال... وغالبا ما كانش بيقعد معاها أصلا غير عندها هي... لحد ما سابوا بعض بعد ما هو دخل الجيش وهي اتجوزت وسافرت مع جوزها أمريكا.

- فاطمة... راجعي معلوماتك كده وصحصحي معايا... أنا عايزة شغل السي آي إيه بتاعك.

نظرت لها من خلف رموش صناعية تم تركيبها بعناية فائقة وتقليمها بيد خبير ماهر... ثم رفعت لوح التكنولوجيا أمام عينيها لترى صورة لفتى وفتاة يجلسان على سور أحد المعابد الفرعونية... صورة يبدو أنها صورت من صورة فوتوغرافية مطبوعة، حتى إنها لاحظت انعكاس الفلاش فوق أحد الأركان.

- ده الأخ اللي بتسألي عليه... ودي البنت اللي بقولّك عليها... اسمها نهى عبد الشكور... كانت في طب أسنان وأصغر منه بدفعة... ودي صورتهم في رحلة الأقصر وأسوان بتاعة الجامعة وهو في بكالريوس... ساعتها كان مربي دقن خفيفة كده قال يعني الواد روش وبتاع... وواضح طبعا من القعدة إنهم close enough... فاطمة عمران ما بتجبش معلومات غلط أبدا.

- طول عمرك بوب يا بطوط.



ثم نظرت في ساعة يدها الصغيرة... حان وقت الرحيل إذن.

- طمني صاحبتك وقوليلها الواد صاغ سليم... خليها تشنكله بقلب جامد.

- كله على الله... أشوفك بخير يا حبيبي.

ثم نهضت تحتضنها مقبلة وجنتي وجهها الممتلئين... وخطت مسرعة نحو الطريق الذي جاءت منه.

صوت فيروز يشدو من الهاتف القابع في جيبها... ترفعه إلى أذنها مجيبة.

- إيه يا ريس انت ضيعت تليفونك ولا إيه؟ بكلمك بقالي ساعة تليفونك مغلق!

- إنتي فين كده؟

- أنا في المشوار اللي بعتلك بسببه الصبح... أجيلك فين عشان عندي أخبار؟

- اركبي المترو وقابليني في محطة السيدة زينب ومن هناك هنكمل عالمعادي.

- بذمتك واحدة آنسة زيي عايزها تركب المترو الساعة ١ الضهر؟ اركب انت المترو وأنا هاخد أوبر وأحصلك عند المحطة... سلام.

أغلقت الخط وشغلت تطبيق استدعاء التاكسي، الذي حول جحيمها المقيم وجولات الركض والسباب والاستجداء خلف سائقي التاكسي الأبيض إلى فردوس حالم ذي مقاعد مريحة... وما إن ولجت داخل السيارة المكيفة حتى أبلغت قائدها الأنيق بوجهتها، ووضعت سماعات الهاتف في أذنها.

وفي قلب هاتفها يقبع ملف صغير سمي باسم ذلك الوغد السابح في



نهر الذكريات... ضغطت عليه بظفرها المطلي باحترافية... فانسابت منه نغمات لأغنية فيروزية حالمة... وفي عينيها ترقرقت دمعة لن تخرج أبدا... كتلك الكلمات التي همست بها لنفسها.

ـ ليه كده يا فاطمة... كان لازم تفكريني يا شيخة.

* * *

(٣)

أقف على الحدود التي صنعتها الأشرطة الصفراء.

خلف هذه الأشرطة الصفراء التي تتقاطع فوق مقبض نحاسي مستدير لباب شقة خشبي شبه مهترئ، كان شخص يدعى خالد عوض مصطفى يعيش حياة ما... حياة امتلأت بالسيئ والجيد... حياة سلبها أحدهم منذ أيام قليلة بعد أن رقع جسده بالحمض.

أنظر في ساعة الهاتف المحمول التي تعدت الثالثة عصرا...

ـ كيمو حبيب قلبي.

جفلت فكدت أسقط على الدرجات الرخامية مهشما عنقي... بينما تلك الكتلة من اللحم البشري ترتقي نفس الدرجات خلفي.

ـ إيه يا مصطفى فيه إيه؟ مش تقول إحم ولا أي زفت قبل ما تطلع.

ـ إنت اللي بقيت خفيف يا كيمو وبتركب الهوا.

مصطفى السعدني... خبير في البحث الجنائي... يداه الممتلئتان الشبيهتان بطفل رضيع لهما دور في كشف غموض مئات القضايا... صديق من أصدقاء عماد المقربين وأحد من عرفتهم لزمن طويل قبل هذا اليوم.

صعد الدرجة الأخيرة وقد أفسحت له حيزا يحتله جسده الممتلئ... وراح ينظر يمينًا ويسارًا ثم أزاح أحد الأشرطة من طرفه، وفك التفافه



حول الباب الخشبي... وأولج مفتاحًا صغيرًا في القفل ثم دفع الباب بيده المكتنزة التي غطاها قفاز مطاطي شبيه بحفاضة رضيع... وأشار لي بحركة مسرحية كي أدخل إلى الشقة.

خطوت نحو الصالة الخالية من الأثاث تقريبا... طاولة سفرة صغيرة ومقعد هزاز خشبي في ركن قصي من الشقة... وممر يصب في صالة توزيع صغيرة بها أربعة أبواب... أحدها يبدو صغيرا ومطلي بلون أبيض متسخ تتوسطه نافذة زجاجية صغيرة.

أوراق معلقة على الأبواب بها بعض مما يسمونه كتابة... كتبت بخط عربي متعجل بقلم جاف قارب حبره على الانتهاء.

- هو ده بقى وكر الملذات بتاع المرحوم.

- وكر مين يا عم... ده أنا شقتي وكر عنها... ده مفيش في ثلاجته حتى إزازة بريل ولا حتة جبنة... مفيش غير أزايز دوا وعينات مضادات حيوية وأقراص مهدئة... آه وفيه علبة بروزاك متاخد منها قرصين بالعدد.

- بتاع الاكتئاب... ده زميل بقى.

نظر لي نظرة مندهشة في بدايتها مشفقة في ختامها... وكأنه يلوم نفسه على نسيانه لما حدث لي من فجائع في العامين الأخيرين... فأغلق فمه وأخرج من جيبه قطعة من الفولية... فض غلافها وقضم منها قضمة مسموعة وأنا أتقدم نحو باب الحمام.

بفم مليء بالفولية قال:

- البس جوانتيات عشان البصمات يا أستاذ... وانجز عشان لو حد شافنا هنروح في أبو نكلة.

رفعت يدي إليه طالبًا السماح... فناولني قفازين مطاطيين ارتديتهما على عجل وأزحت باب الحمام داخلا.



هناك فوق السيراميك الرخيص الرمادي... رُسمت دائرة بالطلاء الأحمر لما يسمونه (حيز الجثة) وهو مصطلح أخبرني به صديق عمري عماد يومًا، عندما تعجبت من دائرة الطبشور التي يرسمونها حول الجثث.

الحمام نظيف تمامًا... كأنه نُظف للتو... رائحة المطهرات ما زالت تفوح من جنباته... لولا الزجاج المكسور من النافذة لظننت أنهم كانوا يتوهمون أن في هذا الحمام حدثت جريمة قتل كهذه!

- الحمام كأنه متشطب امبارح.

- المرحوم كان نضيف أوي الصراحة... لولا إن العساكر لقوا جثته هنا بعد ما كسروا الباب كنت شكيت إنه كان هنا أساسًا.

- وانت إيه رأيك بقى؟

- في إيه؟

خلعت نظارتي وأشرت بطرف ذراعها ناحية النافذة المكسورة، أو فلنقل الذائبة... فهز كتفيه الممتلئتين وواصل قضم الفولية في لامبالاة.

- أيوه فهمت إيه أنا كده؟

- زي ما قولت في التقرير... حمض هيدروفلوريك مركز دوّب الإزاز... نفس التركيز تقريبا اللي اتبقع بيه جلده.

- ومفيش أي أثر ولو صغير على السيراميك؟

- ولا نقطة... الهيدروفلوريك بيدوب السيراميك يا أكرم... يعني كانت هتبقى واضحة أوي لأي عيل صغير معدي هنا.

أقطّب جبيني فتضيق عيناي خلف النظارة... لا أثر لأي أضرار بالحمض على السيراميك في أي مكان... لا على النافذة ولا على



الأرض ولا حتى في حوض غسيل الوجه... ولا على المسبح الصغير الذي يسمونه (قدم).

استدرت موليا وجهي للمرآة الكبيرة لتقع عيناي على منظري المزري... الجيوب تحت العين والجفون المنتفخة واتساع قزحيتي من فعل أطنان القهوة وقلة النوم... وذقني التي نبتت في غير نظام كحشائش حديقة الفسطاط.

اللعنة على وجهك يا أكرم... معذورة من كانت ترى هذا الوجه كل صباح... لو لم يأتها السرطان من صدرها لجاء من رؤيتك.

- أخينا... إنت جاي تسرح هنا... يلا عشان أنا مدخّلك سرقة.

- أنا معاك أهو... هبص بصة بس على باب الحمام وبعدين أختفي.

ثم اتجهت نحو الباب ورحت أمرر أصابعي عليه وعلى مكان القفل المحطم، حتى توقفت يدي على نتوء ما.

- مصطفى...

- مممم...

- إنت متأكد إن العساكر كسروا الباب ده من برة؟

- ده كلامهم اللي قالوه في التحقيق... وبعدين الباب ده بيتفتح لجوة بس، يعني لازم يتكسر من برة.

- مش شرط.

ثم رفعت رأسي ناحيته وأنا أمسك في يدي زنبركًا صغيرًا مما يسمونه في لغة النجارة (سوستة)، ومنحته إياه فراح يتفحصه أمام نظارته الصغيرة.

- ده معناه إيه؟

- زمان وأنا عيل في إعدادية كنت بنزل ساعات ورشة النجارة بتاعت



ابن عمي... أبويا كان بيشجعني أشتغل واقضي وقت فراغي في حاجة مفيدة... ومن ضمن شغل عمي كان تصليح الكوالين بتاعة أبواب الشقق الداخلية... إوض النوم والحمامات والحاجات دي...

ثم خلعت القفاز من يدي ووضعته في جيبي وأنا أمسح يدي من أثر المطاط والعرق...

ـ البتاعة اللي في إيدك دي موجودة جوة أي كالون باب... شغلانتها مش مهم تعرفها أوي... المهم إن السوستة دي لو نطرت من اللسان الكالون بيبقى كأنه مش موجود... بيشبط الباب بس ليس إلا.

ـ يعني تقصد...

كنت قد وصلت إلى الصالة عندما قطع عبارته... للحظات رحت أحدق في برواز خشبي أنيق وضعت داخله صورة للقتيل يبتسم فيها في غموض... غموض لا يراه إلا من يحبون الابتسامات الغامضة الباهتة مثلي.

ـ الباب كان متشبط بس يا مصطفى... يعني العساكر فعليا ما كسروش الباب... لأن الباب ببساطة كان مكسور قبل ما هم ييجوا.

* * *

(٤)

تشدو ماجدة الرومي بأغنية حالمة ما في جنبات الغرفة.

غرفة بسيطة... بسيطة كبساطة الكلمة بأحرفها الخمسة في قاموس المعاني... فراش مرتب بعناية، ودولاب ملابس من ضلفتين ثبتت عليه صورة لـ (ماري كوري) وهي تبتسم للكاميرا في عملية، وصورة لمريم العذراء وهي تحمل رضيعها محاطة بهالة نورانية... وطاولة مكتب صغيرة يجلس على سطحها جهاز كمبيوتر وبعض الأوراق المتفرقة ـ المرتبة رغم ذلك ـ تستقر الطاولة أسفل نافذة واسعة تغلق



بلوحين من الخشب المسمى بالشيش، ولوحين زجاجيين يتوسطهما مقبض معدني لطخ بنقاط طلاء بيضاء.

غرفة بسيطة... بلا أي تعقيدات.

تجلس إيرين فوق الفراش في ثوب منزلي قصير الأكمام... تطلق العنان لشعرها المجعد الملتف، وتسقط نظارتها الكبيرة فوق قصبة أنفها وهي تطالع أوراقًا ما فرشت بها المساحة الصغيرة المتبقية من السرير الخشبي.

ماجدة الرومي تردد حالمة بصوتها الملائكي... ابحث عني...

فتضرب كلمات نزار قباني شيئا ما في روح إيرين.

منذ متى وهي تشعر بهذا؟

ربما من اليوم الأول التي التقت فيه ذلك النبي... القديس ذي الشعر الأبيض والنظارات الطبية... الحالم الساخط ذي السيجارة السوبر وفناجين القهوة السادة عديمة السكر ككلماته المرة.

تذكر يوم أن رأت وجهه للمرة الأولى، وهو يرتدي قفازات ملطخة بدماء ما ويمسك في يده فنجانًا من القهوة وسيجارة سوبر لا تزال في منتصفها... وهو يقرأ شيئا ما في جريدة وضعت مفتوحة فوق مكتبه المعدني.

تذكر يومها وهي تتقدم مؤخرة قدمًا ومقدمة الأخرى... يداها ترتعشان وهي تثبت ساقيها كعودين من البامبو... تتقدم نحوه وهي تزيح خصلة من شعرها المجعد الذي واظبت منذ صغرها على عقصه خلف رأسها حتى لا تصبح مثل أمنا الغولة ـ كما تصفها أمها ـ تتقدم وهي تتنحنح محاولة لفت انتباهه لها.

لا تتذكر إن كانت هذه المحاولة هي الثالثة أو الرابعة أو الخامسة... تتذكر فقط أنها في كل مرة تراه كانت ترى فيه وجها جديدا كأنها تراه



أول مرة.

العجوز ذو الألف وجه...

- صباح الخير يا دكتور.

- مممممم... خير.

- حضرتك برضه ما...

- بتعرفي تكتبي عالكمبيوتر ولا لأ؟

سؤال صادم... هز ساقي البامبو اللتين تحملانها ورفع من ضربات قلبها المصاحبة لرعشة أطرافها.

- آه حضرتك بس مش سريعة أوي يع...

- مش مهم... تعالي ورايا.

ثم نهض الديناصور... وحش لوخ نس الجالس كأنه هناك منذ فجر التاريخ... بخطوات بطيئة لعجوز في الستين أتت السنون على غضاريف ركبتيه... تقدم ناحية مكتب آخر داخل غرفة زجاجية كست الأتربة المزمنة زجاجها فأصبح مصفرا خشنًا.

أشار لها بيده التي تحمل السيجارة فجلست على مقعد يواجه شاشة كمبيوتر من طراز تسعيني انتهى استخدامه... شاشة لا ترى منها سوى ست عشرة بوصة مربعة من صفحة خاوية من برنامج الوورد.

عدلت من نظارتها الضخمة... وتنحنحت من جديد.

النبي يخلع قفازاته الملوثة ويلقي بها في سلة مهملات صفراء تحمل شعارا بليت أطرافه... ربما كان شعار المواد الخطرة أو المواد المشعة... لا تعرف ولن تعرف أبدا.

- قدامك عالمكتب فيه تقرير أنا كاتبه بخط إيدي المنعكش ده... أيوه هو ده... التقرير ده عايزه عالكمبيوتر مترتب ومتنسق...



هتلاقي على سطح المكتب ملف فيه صور حطيها في التقرير زي ما تحسي إنها محتاجة تتحط.

راحت تفتش فوق سطح طاولة المكتب... فلم تجد إلا ورقة واحدة نقش عليها بخط شبيه بالكتابة المسمارية بضع كلمات فنظرت إليه.

- معلش حضرتك... بس أنا مش لاقية ملف الصور.

- عشان بتدوري في المكان الغلط.

- مش حضرتك قولت سطح المكتب.

- صح... بس هل أنا سيبويه؟

- لأ حضرتك دكتور أحمد علام.

- يعني لما أقول سطح المكتب بالفصحى يبقى أقصد إيه؟

نظرت له مبتسمة في خجل... ثم حركت الفأرة البيضاء العملاقة إلى سطح مكتب الكمبيوتر لتجد ملفًا سمي بالعربية (قضية ١٢٣ ـ صور).

- برافو عليكي... واضح إنك لماحة وبتفهمي بسرعة.

نبرة ساخرة ميزتها بين طيات صوته... ربما كان يسخر وربما لا... لكنها هناك في صوته.

- يلا توكلي على الله كده وابتدي... وأنا قاعد برة لو احتجتي حاجة اسأليني.

أومأت برأسها ثم اعتدلت في جلستها فوق الكرسي الجلدي متمزق المساند... وبدأت تضرب بأصابعها الطويلة فوق الأزرار محدثة أكبر جلبة ممكنة.

ومن يومها... لم تخرج من مدار الكوكب العجوز.



صارت قمرا يدور حوله... صارت أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله.

صارت ظله.

كانت تسمع في عظة الأربعاء أن لكل قديس ورسول كان هناك تابع... تابع يتوارى في الظل فلا يعرفه العامة ولا التابعون... تابع لا يقل عن الرسول تقديسًا.

صارت تابعة القديس ذي الشعر الأبيض المنحسر عن مقدمة رأسه... والعينين الرماديتين الحادتين اللتين تخفيان بريقًا متقدًا خلفهما... والأصابع الممتلئة الطويلة... صارت تهيم على وجهها حتى يرتاح رسولها وقديسها في ملكوته فلا يزعجه أحد ولا يشغله شاغل.

واستيقظت يوما من نومها لتكتشف أنها تحبه!

التعسة قليلة البخت كما تصفها أمها وخالتها.

الحزينة قليلة الحيلة كما تصفها ميري شقيقتها الخمرية الساحرة... جاذبة العرسان وفاتنة شبرا الأولى.

ألقت بالأوراق فوق الفراش وذهبت صوب النافذة... أزاحت الضلفتين الزجاجيتين وأزاحت الشيش قليلا.

الشمس تذهب لمستقرها وهي بعد بلا مستقر.

ماذا تفعلين بنفسك يا بلهاء؟

راحت تبدأ فقرة التقريع واللوم اليومية... تحتاج روحها التائهة إلى فقرتين كل يوم حتى تستقيم وتستطيع النوم والحياة... فقرة غروب الشمس وهي فقرة خصصتها للوم نفسها على ما تشعر به تجاه ذلك العجوز الساحر... وتحاول فيها أن تثبت لروحها الهائمة بلا مستقر أنها تحب فيه الأب الذي فقدته... والمعلم الذي رحل... والقدوة



التي لم تجدها... ثم تسب نفسها وتلعن يوم ولادتها ويوم دخولها كلية الطب... وتعلن لنفسها أنها بلهاء حمقاء وأنها تحبه هو لأنه هو وليس لأنه أب أو معلم أو قدوة... بينما تتركز فقرتها الليلية قبل النوم على تذكير نفسها بأنها تعيش كالراهبة... بلا صديقة أو زوج أو رفيق... وأنها تهيم حبًا بعجوز يكبرها بخمسة وثلاثين عاما، وأنها ولا بد ممزقة شرايين يدها يومًا أو ملقية بنفسها من شرفة منزلهم... ثم تنام حالمة بكل الكوابيس التي حلمت بها في الليالي السابقة لتستيقظ بهيئة أمنا الغولة كما تصفها أمها.

ومن جديد تعود للدوران في فلك الكوكب العجوز.

فهل هناك قمر تمرد على مداره حول كوكبه يوما وحمل أشياءه ورحل؟

صوت طفولي مزعج يأتي من خلف الباب المغلق مع دقات متتالية كدقات بندول الساعة:

- أبلة إيرين... أبلة إيرين... أبلة إيرين.

تتقدم ناحية الباب الخشبي وتفتحه في هدوء لتجد أمامها همها الثاني...

إذا كانت إيرين راهبة العلم والعمل صاحبة الستة وعشرين عامًا... وميري حورية الجمال والفتنة صاحبة الثلاثة وعشرين عامًا... فإن ماريان صاحبة الأربعة عشر عاما هي الخليط الذي مزج من روحيهما معا... وأضيف له لسان أمها وخالتها.

- نعم... عايزة أيه؟

- بالراحة طيب ما تزقيش... أصل أنا...

- باختصار لو سمحتي عشان ورايا شغل.

- طب هنتكلم من على الباب كده... مش تقوليلي اتفضلي ولا حاجة!



ابتسمت رغمًا عنها... ثم ارتدت قناع الجدية والأخت الكبرى من جديد، مفسحة فرجة صغيرة عبرت منها ماريان إلى الغرفة.

- هي مين اللي بتغني دي يا أبلة؟

- ماجدة الرومي.

- آه... مش دي بتاعت المطرة السودا؟

- سودا ولا كحلي مش موضوعنا... عايزة إيه إخلصي بقولّك ورايا شغل.

رفعت ناحيتها كتابًا جُمع من ورق رخيص، يحتل صفحة كاملة منه جدول لون بألوان باهتة، خرجت من أطر المربعات التي تملأ منتصفها أحرف إنجليزية...

- نعم أؤمري؟

- إنتي تعرفي الموكوس ده؟

- آه ده الجدول الدوري.

- أهلا وسهلا... تشرفنا... وده بيحكي عن إيه بقى؟

- ده بيحكي عن حاجة اسمها العناصر الكيميائية الموجودة في الطبيعة... عمله واحد اسمه ديمتري منديليف من يجي ٢٠٠ سنة كده، ومن ١٠٠ سنة جه واحد اسمه موزلي ظبطه ورتبه لحد ما حضرتك شوفتيه كده... ووظيفة الجدول ده إنه يعرفك خواص مجموعات العناصر وتفاعلها مع بعضها، وشوية حاجات مش هتستفيدي منها أوي في ثانوية عامة بتاعتك دي.

تنظر إلى الكتاب وإلى وجه إيرين... علامات عدم الفهم والاستنكار تكسو وجهها الطفولي الجميل... زومان شفتيها المستديرتين يظهر غمازاتها المحفورة في منتصف خدها.



- فيه إيه مالك؟

- أبلة إيرين خلينا نتفق على حاجة... أنا حمارة حضرتك ومقرة بكده... والسبب الوحيد اللي خلاني أدخل علمي إنك وعدتيني إنك هتساعديني في المذاكرة... لكن هتقوليلي منديلف وموزي...

- موزلي.

- موزلي يا أبلة ما تزعليش... هتقوليلي الحاجات دي كده زي ما هي مكتوبة في الكتاب هولع في الكتاب وفي الجدول وفي الشقة كلها... وهروح أحول أدبي وأدخل خدمة اجتماعية واخلص.

ثم أغلقت الكتاب وألقت به أمام عتبة الباب وقفزت مربعة ساقيها تحتها واضعة يدها فوق خدها الأيسر.

- ودلوقتي بقى احكيلي حضرتك عن الجدول الدوري ده ببساطة كده.

ابتسمت إيرين وتناولت الكتاب مقتربة من أختها... وجلست إلى جوارها مربعة ساقيها النحيلتين وهي تفتح الكتاب على نفس الصفحة.

- طيب إحنا اتفقنا إن ده اسمه إيه؟

- الجدول الدوري.

- وتفتكري ليه سموه الدوري؟

- أكيد مش عشان بتاع الدوري العام.

قرصتها في فخذها فأصدرت ماريان أنة عابثة ثم وضعت كفها فوق فمها.

- كده أحسن... سموه الدوري عشان العناصر فيه بتتشابه مع اللي قبلها أو اللي بعدها في نفس مجموعة العناصر في بعض الصفات الفيزيائية والكيميائية... ببساطة يعني هو صنف العناصر لعائلات



شبه بعضها مع اختلاف الوزن والسن والشكل العام... يعني مثلا...

ثم أشارت لها لتنظر إلى الجدول متابعة

- المجموعة اللي لونها بمبي على الشمال دي هي الفلزات القلوية.

- ده مش بمبي ده بصلي.

- المرة الجاية هقرصك في حتة مش لطيفة.

وضعت كلتا يديها على فمها وهي تكتم الضحكة المجلجلة العابثة.

- المجموعة اللبني اللي على اليمين دي اسمها الغازات النبيلة، زي الهيليوم والنيون والأرجون... المجموعة بقى اللي لونها أخضر دي مجموعة الهالوجينات.

- يعني إيه بقى هالوجينات.

- يعني عناصر بتعمل أملاح لما بتتفاعل مع فلزات أو معادن... زي كلوريد الصوديوم اللي هو ملح الطعام... وزي فلوريد الكالسيوم... and so on

- شوفتي لما فهمتيني بالراحة أنا فهمت إزاي...

- طيب يلا زقي عجلك واطلعي كملي مذاكرة يلا... وبعدين لما تغلبي ابقي امسكي موبايلك ودوري على جوجل... أمال أنا بدفع اشتراك النت كل شهر ليه... عشان الانستجرام وصوره بس؟

- فكرتيني... تيجي ناخد سيلفي؟

أخرجت هاتفها المحمول من جيب بنطالها الرياضي فدفعتها إيرين ناحية الباب... إلا أن ماريان بدت كأنما تريد شيئا لا تعرفه.

- فيه حاجة كمان كنت عايزة أسألك عليها بس مش فاكراها.

- خلاص لما تفتكريها تعالي اسألي.



- ما هو أنا كده مش هفتكرها خالص.

رفعت إيرين يديها من فوق كتف أختها ووضعتها في وسطها مبدية انزعاجًا أنثويًا قلما تبديه... بينما وقفت ماريان على باب الغرفة ورفعت الكتاب كأنما تذكرت شيئا ما...

- هي إيه الأرقام دي يا أبلة؟

- دي الأعداد الذرية للعناصر... يعني مثلا ١ للهيدروجين...٢ الهيليوم... ٣ الليثيوم... عشان تسهليها على نفسك... اعتبريها ترتيبهم في الجدول... زي ما تكوني بترقمي حاجات في لستة.

- آه فهمتك... يعني أعتبر إن العنصر الأول في الجدول هو الهيدروجين... التاني هو الهيليوم... السابع مثلا عشان بحب رقم سبعة يبقى...

ثم راحت تنظر في الجدول أمامها بينما سهمت إيرين وسرحت عيناها في نقطة وهمية ما خلف رأس أختها.

- التاسع... قوليلي رقم تسعة يبقى إيه.

- رقم تسعة يا ستي رقم تسعة... آه... الفلور.

وكأنما لدغتها عقربة... انتفض جسد إيرين ثم وكأنما دخلت في سبات منوم مغناطيسي في أفلام إسماعيل ياسين... مشت ببطء ناحية مكتبها وجلست أمام شاشة الكمبيوتر وهي تردد بلا انقطاع.

- الفلور... المقالة... الفلور... المقالة... إزاي ما خدتش بالي؟

وبينما ماريان تغلق الباب مترحمة على عقل أختها الكبرى وما فعله بها الفلور، كانت إيرين تضرب بأصابعها فوق لوحة المفاتيح، طالبة من السيد المبجل جوجل أن يأتيها بنتائج عن الفلور العنصر التاسع.

* * *



ـ الخبرات السابقة

(١)

أنت الآن في حضرة مهران العيسوي.

اخلع حذاءك وارتدِ فوق جواربك الصوفية القديمة كيسًا بلاستيكيًا معقمًا... واسمح لهم أن يرشوا يديك بمطهر ذي رائحة نفاذة... ثم ارتدِ على رأسك غطاء الرأس القماشي ودق الباب بهدوء كي تفتح لك سكرتيرته الحسناء ومديرة مكتبه... مخبرة إياك أنه داخل العزل لا يقابل إلا الضيوف المهمين ذوي الحيثية... تخبرك وهي تنظر لك من أخمص قدميك حتى مقدمة رأسك التي انسلت من عليها الشعيرات البيضاء... متسائلة في سرها عما يجعل عجوزا مثلك ضيفًا ذا حيثية عند مرؤوسها المبجل.

تدلف يا سيدي إلى الغرفة المبطنة بمواد تعزل الصوت والضوء والحرارة... لتجده يجلس فوق مقعد جلدي وثير، وفي يده سيجار ضخم ينفث دخانه في شرود.

ـ دكتور علام... ده شرف كبير لي إنك ضيفي... اتفضل.

يشير إلى مقعد آخر خاو بجوار مقعده... فتجلس عليه بلا أن تمد يدك بالسلام... تمد يدك في جيبك فتخرج علبة سجائرك السوبر لتجده ينظر لك شذرا.

ـ أعتقد إن حضرتك عارف إنها غرفة عزل والتدخين فيها ممنوع.

ـ أعتقد إن اللي في إيدك ده مش صباع عسلية برضه.

يطلق ضحكة مجلجلة مستفزة... ثم يريح ساقه التي وضعها سابقًا فوق أختها... ويمسك السيجار الضخم بكلتا يديه ويديره حول محوره لتعرف ما يحتويه.

ـ ده سيجار إلكتروني جديد... عبارة عن زيوت عطرية ونيكوتين



مقطر وفلتر ٣ مراحل، عشان الدخان اللي بيطلع منه يبقى أنضف من الهوا اللي بنتنفسه هنا... الغلاف الخارجي معمول من مادة قماشية ملمسها شبه ملمس ورق التبغ... باكورة إنتاج مصانع الصين الجيدة بتاعتنا... تحب تجرب.

- لا متشكر... أنا أحب أموت بالقطران والنيكوتين وخشب السوبر.

يبدي تقززا... ويدير السيجار من جديد إلى وضعه القديم ويتابع سحب الدخان الصحي.

- يا ترى حضرتك شرفتني بالزيارة لسبب ما ولا عشان تتطمن على صحتي بس؟

- لا أنا اتطمنت على صحتك جدا أول ما دخلت عليك أوضة العزل دي... الحقيقة أنا ما كنتش متخيل إن السرطان انتشر في جسمك أوي كده.

- سرطان إيه؟

- سرطان الرئة يا دكتور... وما تسألنيش عرفت منين عشان مش هقولك... تقدر تقول إنه سر المهنة.

أطلق ضحكة مجلجلة جديدة اختلطت بعصبية بدأت تظهر في أطرافه، ثم نظر إلى جذوة اللهب الإلكترونية متابعًا:

- تقدر تقول إني بلاعب القدر آخر جيم في معركتي معاه... بحاول أأخره شوية.

- محدش بيأخر القدر يا دكتور.

- محدش جرب قبل كده عشان يعرف إذا كان يقدر ولا لأ.

- وانت شايف إن السجن ده هيخليك تقدر؟

- وليه ما تبصش لنص الكوباية المليان... ليه ما نسميهوش غرفة



استشفاء؟

ـ تعبير مزيف وكله اصطناع يا دكتور مهران... السجن سجن ولو كانت قضبانه حرير.

هز رأسه معلنا ملله من المناقشة الجدلية التي لن تقنع أحدكما... عجوزان في سن المعاش من خلفيتين وطباع وبيئتين مختلفتين يجلسان متقابلين في غرفة معزولة... بيئة مثالية لبداية معركة كلامية لن تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ـ طيب نخش في الموضوع.

ـ أكون شاكر لذوقك.

ـ المرحومة مريم.

ـ ألف رحمة ونور عليها... مالها.

ـ كانت مدمنة فلوكستين.

ـ كلام غير علمي بالمرة... إنت عارف كويس أوي إن ٣٠٪ بس من حالات تعاطي الفلوكستين ممكن تتصنف كإدمان... ولنفترض إنها كانت من النسبة دي... فده مالوش أي علاقة بوفاتها.

ـ إنت اتكلمت مع الشرقاوي مؤخرا.

ابتسم ابتسامة عريضة... ووضع السيجار المزيف فوق طاولة صغيرة من الكريستال النقي بجوار المقعد. ثم مال بجسده ناحيتك.

ـ إنت عايز ايه بالضبط يا دكتور.

ـ بنتك مريم الله يرحمها كانت على علاقة بشاب اسمه خالد عوض مصطفى.

ـ وسابوا بعض قبل وفاتها بشهر.



- وخالد كان بيشتغل عندك هنا في معامل تطوير العقاقير في مصنع الأدوية بتاع العاشر.

- ورفدته أول ما عرفت علاقته بمريم وشغله المشبوه وسرقته المستمرة للمواد الخام.

- وبعدها اشتغل في فارما وورلد.

- شركة توزيع بتاخد من المصانع عندي شغل زي أي شركة تانية.

- وهو كل الشركات اللي بتاخد شغل من عندك مملوكة للمدام؟

- إنت عايز إيه بالظبط يا دكتور علام؟

- إنت كنت تعرف إن مريم حامل في الثاني؟

عاد إلى الخلف فاردا ظهره واضعًا ساقًا فوق ساق... مصوبًا كل ترسانة الأسلحة الكامنة في عينيه نحوك أنت يا دكتور علام.

فلتحمد الله أن الأعين لا تقتل بنظراتها!

- إنت عارف طبعًا إنك ممكن ما تخرجش من الأوضة دي تاني.

- وعارف إنك مش بالغباوة اللي تخليك تعمل تصرف زي ده.

- عايز تعرف إيه بالظبط يا دكتور؟

- خالد لقوه مقتول في شقته... اتقتل بعد ما اتحرق جلده بحمض هيدروفلوريك.

- جزاء من جنس العمل... إيه العدالة الشعرية دي؟

تنظر له من خلف عدسات نظارتك مندهشًا... فتقابلك ابتسامته التي حاول جعلها غامضة فخرجت عصبية متشفية.

- أظن كده حضرتك عرفت أنا عايز أعرف إيه.

- بص يا دكتور علام... أنا لولا إني ما بحبش الدم كنت خلصت عليه



من زمان ومن زمان أوي... لكن عشان أنا راجل لي مركز وسمعة.. ما رضتش أوسخ إيدي بدم الحيوان ده.

ـ عشان كده قررت توسخ إيد حد تاني.

ـ ده انت بتتهمني بقى؟

ـ يجوز ليه لأ؟

ـ إنت عارف أنا مين يا دكتور علام... وعارف أنا ممكن أعمل إيه.

ـ حضرتك ما تعرفش مين اللي كلفني بالقضية دي وممكن يعمل إيه برضه.

تناول السيجار المزيف وراح ينفث الدخان الصحي... رائحة عطرية شبيهة بالعطور التي يركبها أصحاب المحلات الرخيصة في شوارع بين السرايات... هكذا حدثتك ذاكرتك عن الرائحة.

ـ طلباتك؟

ـ عايز أعرف علاقتك بخالد عوض مصطفى... وبالتفاصيل يا دكتور... وياريت بقى نخرج من السجن ده لمكان فيه هوا ربنا، عشان أنا بدأت أتخنق وممكن تضطر إنك تبرر لغيري علاقتك بحالتين وفاة مش حالة واحدة.

نظراته تخترقك... تحاول أن تزنك وتزن ما تقول... إلا أنها لم تفلح في خدش قشرتك السميكة... أنت كالقنفذ عندما يحاول أحدهم مهاجمته... ولو كان مهاجمك يرتدي قفازات ثقيلة صلبة... فأنت قنفذ عجوز يعرف كيف يكون مؤذيًا حتى لمن يرتدي قفازات الحماية.

لذا فلم تستغرب حينما وجدت نفسك جالسًا فوق مقعد وثير بحديقة فيلا في أطراف القاهرة الفاخرة، تحيط بك أشجار لم تعرف يوما أنها موجودة.



لا تستغرب حينما تجد رسالة من تابعتك وتلميذتك النجيبة، تخبرك أن الفلور هو ما كنا نبحث عنه.

لا تستغرب حينما تجد أمامك فنجان قهوة من بن كولومبي حقيقي، وسيجارتك السوبر ترقص فرحة بين يديك.

ومهران العيسوي يخبرك بما تريد أن تعرفه.

أو ما ظننت أنك تريد معرفته.

* * *

(٢)

أجلس فوق مقعد خشبي مهترئ في مقهى تفوح منه رائحة المجاري مخلطة برائحة حرق المعسل المخلوط بالفحم الرخيص المخلوطين برائحة بن مخلوط بقشر الفول السوداني... خليط من كل ما هو مزيف.

مَن قال إن الجلوس على مقهى في منطقة شعبية هو أصل الحكاية، فليأت معي هنا ويتشمم الروائح التي تفوح من داخل المقهى ومن خارجه، ومن مقاعده وطاولاته وحوائطه ورواده، ومن الهواء الذي يدور في فضائه.

لقد ماتت أيام زينهم السماحي يا صديقي... ماتت ودفنت وأهيل عليها التراب من كل صوب... تراب لا يقل كثافة عن ذلك التراب الذي أصبح يكسو المقاعد والطاولات والأكواب والأراجيل،

ويكسو الوجوه الجالسة وسط كل هذا.

كوب شاي متسخة أطرافه، وكوب ماء لا تقل نقاوته عن ماء المجاري الطافح من بلاعة صرف بجوار المقهى، يحفران بالماء السائل من طرفهما مسارا وسط الأتربة التي تكسو الطاولة، الناموس يحوم حول رأسي ثم يقترب من يدي فتزعجه الأدخنة المتصاعدة من سيجارتي



التي أبقيها مشتعلة قدر الإمكان... لكن واحدة تفلت متذوقة دمي فتصاب بسرطان من دم فاسد سرى في عروقها... فتطير غاضبة من الخير الذي راح من دم البشر.

- اتأخرت عليك يا هندسة؟

ألتفت ناحية صاحب الصوت... أجش النبرات... مستقيم مخارج الألفاظ... فأشير له برأسي أن لا... ثم أشير له بكف يدي أن يجلس.

يُخرج من جيبه كيس مناديل ورقية ويحرر منه اثنين أو ثلاثة يغطي بها المقعد، ثم يجلس وقسمات وجهه المتضخمة يكسوها التقزز.

- إيه المكان المقرف ده؟

- مش انت اللي قولتلي نقي قهوة في بولاق الدكرور واقعد عليها وابعتلي اللوكيشن؟

- وهي بولاق الدكرور عدمت القهاوي يعني لما تقعدنا في الخن الحقير ده!

- معلش يا عم مرعي... خليها عليك المرة دي... المرة الجاية هبقى أحجزلك ترابيزة في تشي إيدي ولا في جراند كافيه.

ابتسم في سخرية فكشف عن صف أسنان ناصع البياض يدل على مهارة طبيب الأسنان الذي زرعه له... ثم مد يده مشيرا بعلامة الشيشة لأحد الصبية المارين بين مرتادي المقهى.

- خير يا هندسة؟

- كل خير إن شاء الله... طبعا عماد باشا إداك فكرة أنا عايزك ليه.

- معلوم.

أتى الفتى بالشيشة فصمت مانحًا إيا نظرة أعادت لساني إلى



حلقي... ثم سحب بعض الأنفاس المتمرسة من مبسم الشيشة متابعًا:

- عماد باشا اداني كل التفاصيل.

- طيب جميل... ويا ترى رأيك إيه؟

- أنا ما بقولش آراء يا هندسة... أنا راجل بتاع شغل ومش فاضي... المطلوب إيه وهيكون عندك حسب ما تحب.

- أظن عماد إداك فكرة عن المطلوب.

- برضه أحب أسمع منك انت.

أشعلت سيجارة أخرى وأنا أهش ناموسة لم تتعلم من صديقتها، فاقتحمت رقبتي طالبة بعض الدماء.

- خالد عوض مصطفى... مهران العيسوي... مصنع الأدوية... مستشفى مهران الدولي... شركة فارما وورلد.

- إنت بتحل كلمات متقاطعة ولا إيه يا هندسة!

- لا الكلمات المتقاطعة انت اللي هتحلها يا برنس... أستأذن أنا بقى... لما توصل للحل ابعتهولي.

أومأ برأسه ومبسم الشيشة لا يغادر فمه... ثم نفث سحابة دخان طردت كل عائلات الناموس المحيطة بنا، بينما أخرج بعض جنيهات لأنقدها لصبي القهوة.

- اتكل على الله الحساب عندي.

- لا خليها المرة الجاية.

- لا والله... وبعدين أصل أنا لسه قاعد شوية... عندي ميتينج.

قالها مفخما حروفها مضيعا كل مخرج لكل لفظ فيها يمت إلى الإنجليزية بصلة... فابتسمت ساخرا ثم لوحت له بيدي راحلا.



وبينما أنا أبحث عن خطواتي بين الحجارة المتراصة فوق بالوعة مجارٍ أخرى، تذكرت أن شيئًا ما قد فات عليّ...

- معقولة... ليه لا؟

وبينما أحاول إقناع نفسي بما خطر على رأسي من أفكار... كان رنين الهاتف يعوي بمن خطر على بالي حينها.

* * *

- الأشخاص المرجعيون

(مهران العيسوي... فيلا فاخرة... القاهرة)

يعتدل مهران العيسوي في جلسته من جديد... ويريح ساقه العجوز أمامك... وينفث سحابة من الدخان الأبيض من سيجاره الإلكتروني متابعًا.

- أنا ما عملتش كل ده بسبب التكنولوجيا ولا الأبحاث المتطورة يا دكتور علام... أهم سبب في نجاح المجموعة ونجاح البيزنس ده كله هو العنصر البشري... كل واحد انضم للمجموعة دي في يوم من الأيام كان سبب في إنها تطلع خطوة لقدام... من أول رؤساء مراكز الأبحاث ومديري المستشفيات والمعامل، لحد الناس اللي بتكنس السلالم وبتمسح مواقف العربيات... كلمة السر في الإمبراطورية دي هي العنصر البشري.

- وطبعا خالد كان عنصر بشري ما يتفوتش.

- طبعا... شاب متوهج الحماس... من أوائل دفعته... عبقري بالفطرة... جالي عليه توصية من تلاتة من أساتذته، وهم بالصدفة اتنين من أعضاء مجلس إدارة المجموعة.

- بالصدفة طبعًا.



تجاوز مهران سخريتك يا دكتور... فهو لن يصمت ما دام يتكلم.

ـ القضية إنه اختفى سنتين كاملين... ما كناش عارفين عنه حاجة... استخدمت اتصالاتي عشان أعرف الولد ده فين... وفي ليلة من ليالي ٢٠٠٨ لقيناه ظهر فجأة في الكلية بيطلب شهادة تخرج عشان يوثقها ويسافر... لابس هدوم قديمة ومطول دقنه وشكله كان داخل أو طالع من دور الاستشياخ إياه... ساعتها ما فوتناش الفرصة وأغريناه باللي يخليه ينسى السفر تمامًا... ولما انضم كان فعلا يستاهل كل مليم عرضناه عليه... لدرجة إنه في خلال سنة كان بقى من الفريق المخصوص اللي بيعمل أبحاث تطوير أدوية السرطان الكيماوية الجديدة اللي هتنقل العلاج الكيماوي مليون خطوة قدام... بس للأسف... الحلو ما بيكملش.

ـ بمعنى؟

ـ بمعنى إن خالد بعد فترة من مشاركته في الأبحاث بدأ حماسه وتقبله للشغل مع المجموعة يقل... بدأ ما يحضرش الاجتماعات التحضيرية... بدأ غيابه يزيد وبدأت تغيرات تتم في شخصيته... تقدر تقول فقد شغفه زي ما بيحب المثقفين يقولوا... لحد ما حصل اللي حصل.

تبتسم متفهمًا وتهز رأسك... أدبك الجم يمنع أن تذكره من جديد بعلاقة غير مشروعة لابنته المرحومة، مع الفتى الذي كان يصفه منذ قليل بالعنصر البشري الهام.

ـ وطبعا عشان الموضوع يتلم ونقفل كل حاجة من غير ما حد منهم هم الاتنين يحس... عملناله نقلة بسيطة... حركناه لشغلانة أقل ما يقال عنها إنها ماتناسبش إمكانياته وهو نايم بيشخر... وبدل ما كان عضو في أهم فريق أبحاث في الشرق الأوسط بقى مندوب مبيعات... ميديكال ريب.



- وطبعا ما تقبلش الإهانة واستقال.

- بالعكس... ده يومها كان في منتهى السعادة ومدير شؤون العاملين بيبلغه بالخبر... وطبعا عشان هو خالد... وعبقري... شرب المهارات بتاعة التسويق والمبيعات في شهور قليلة جدا... وكان بيقفل التارجيت بتاعه في نص الشهر ويقعد باقي الشهر يبعزق اللي كسبه... زيه زي أي نقاش شغال باليومية... كنت ناوي أقرص ودنه وأرجعه تاني لكن قرصة الودن جت على مزاجه.

- واضح إنك كنت بتحبه أوي.

سيبتسم لك ابتسامة كلها مرارة... حتى لتشعر أن مهران العيسوي اكتسب مؤخرا صفات أبوة نحو الوغد الذي كاد يلطخ اسمه في الوحل.

- عارف يا دكتور علام... لو كان جالي وقالّي أنا عايز أتجوز بنتك ما كنتش هرفض... بالعكس أنا ما كنتش هحب بنتي الوحيدة تبقى مع حد تاني غيره... أنا لو عايز أجوزها ابن وزير ولا ابن إمبراطور ما كنتش هغلب... اللي يحب يناسب مهران العيسوي كتير... بس كل ده كان هيروح في يوم... لكن اللي مع خالد ما كانش هيروح أبدا... اللي معاه كان العنصر الناقص اللي أنا كنت بدور عليه عشان أفتح لنفسي بوابات السحر.

- العنصر التاسع.

- ده واضح إن مش أنا لوحدي اللي قريت مقالة خالد وقريت الرواية.

- واضح إن المقالة دي مشهورة من زمان... من قبل ما تتنشر كمان.

ستبتسم له ساخرا... أنت لا تحب الروايات عمومًا ولا تستسيغها... لكنك سمعت مني عن الرواية والمقال وكل هذا الهراء.

- طب وإيه سبب إنه ساب الشركة ومشي؟



ـ حرامي واتمسك بسرقته واترفد... أنا ممكن أسامح في أي حاجة غير حاجتين... تسرقني أو تغشني... وهو عمل الحاجتين.

ـ عشان كده سهلت عملية قتله.

ـ لو كنت عايز أقتله كنت خفيته من على وش الدنيا ومحدش كان عرفله طريق... ما كنتش هبعت عيل خيبان يحرق جلده بالحمض... كنت هدوبه في الحمض نفسه يا دكتور.

سيمنحك ابتسامة تشع كما يشع بريق عينيه... بالغل والكراهية والتشفي... لكنك ترى خلفها ما يخفيه عنك... ترى قلب رجل احترق عن آخره، ليس بسبب ابنته التي ذهبت ولا بسبب خيبة أمله في تلميذ نجيب... لقد سرق منه ذلك الفتى ما هو أقيم وأهم من ابنة ميتة أو أبحاث مهدرة.

ـ سؤال أخير.

ـ هو لسه فيه أسئلة تاني؟

ـ اعتبره استفسار على سبيل الفضول.

ـ ولو إني بكره الفضول... البني آدم لازم يكتفي باللي يعرفه وبس... ساعات المعرفة الزيادة بتحرق العقل زي ما النار العالية بتحرق الرز.

ستنظر له مبتسما من تشبيه يصدر من مهران العيسوي إمبراطور الطب والدواء... لو كان من أم سيد التي تطهو لك طعامك كل أسبوع لقهقهت عليه ضاحكًا.

ـ رغم كده أنا موافق أروي فضولك.

ـ لما قولتلك إنه مات جلده محروق بالحمض... رديت وقولت الجزاء من جنس العمل... ليه كده؟



- من حوالي خمس سنين... كان خالد من ضمن فريق بحث بيشتغل على تطوير كونتينرات جديدة لحفظ حمض الهيدروفلوريك... بدل كونتينر البولي إيثيلين الغالي... وفي تجربة من التجارب وبسبب إهماله... واحد من المساعدين اللي معاه صابته بقع حمض وجاله حروق في رقبته ووشه وكان هيروح فيها... وعشان نلم الموضوع سفرناه يتعالج تجميليًا في ألمانيا وخالد خد لفت نظر.

- إجراء عقابي حازم فعلا.

تنهض وعلى وجهك ابتسامتك الساخرة المنهكة العجوز وأنت تسوي ثيابك بيدك اليسرى، وباليمنى تشعل سيجارة سوبر جديدة... ثم تشير بيدك مودعا مهران، وتتحرك بخطواتك الثقيلة إلى الباب الذي سيقودك إلى الخارج.

- دكتور علام.

- أفندم.

- طبعًا مش محتاج أقولّك إننا ما اتقابلناش النهارده.

تلتفت له مبتسما وأنت تلوح برأسك يمينا ويسارا... ثم تبتسم وترفع يدك من جديد.

وبينما تغادر باب الفيلا إلى سيارتك العجوز النائمة بجوار السور كصندوق قمامة خشبي... ستعرف أنك قد اقتربت... وأن كشف الحقيقة أصبح مسألة وقت.

- أيوه يا إيرين... أيوه وصلتني الرسالة... مش ده المهم خالص... أنا عايزك تقابليني في المشرحة الصبح بدري... هنعمل شوية حاجات كده على جثة خالد... العنصر التاسع المقصود حاجة تانية خالص... لما أشوفك هقولك... سلام.

تبتسم... وأنت تحدث نفسك بأن الدجاجة المذبوحة ما زالت



تبيض... وأنك تملك شيئا لا بأس به في رأسك العجوز يعمل بكفاءة.

ـ مساء الخير يا باسل باشا... أنا عايز أطلب من حضرتك خدمة... عايزك تدور في السجلات بتاعتكم إياها عن أي حاجة كان بيعملها المجني عليه ما بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٨... الفترة دي مفقودة ومالهاش أي أثر عند أي حد... شكرا يا باشا على التعاون... متشكر جدا... هنتظر تليفونك.

تنزل الهاتف المحمول من على أذنك... الابتسامة لا تزال على وجهك، لكن ألما ما بدأ في الزحف ناحية ذراعك اليسرى... تخرج سيجارة جديدة من جيبك وتبدأ في إشعالها محاولا التناسي، لكن قلبك العجوز ابتسم ساخرا... وقرر أن الأمر لم يعد ملك يدك وأنه بعد كل هذه السنوات قرر أن يعلن عن ثورته... ويتوقف عن الخفقان.

لذا، فسوف يجدك حراس الفيلا بعد دقائق قليلة نائمًا بجوار رفيقة دربك العجوز، أو هكذا ظنوا.

* * *

(أحمد علام... مستشفى متميز... القاهرة)

طبيب شرعي شهير يرقد على سرير في غرفة رعاية مركزة بأحد المستشفيات.

تبدو الجملة كأنها عنوان في خبر صحفي مثير... سيقرأها البعض على إحدى صفحات فيسبوك، وعندما يحاولون قراءة الخبر سوف يجدون اسمه أحمد علام... سيقلب البعض منهم شفتيه وسيمط بعضهم شفتيه ثم يلوك الخبر في فمه متذوقا طعمه ودرجة سخونته... ثم يغلق الرابط الذي أرسله للتفاصيل ويكمل تصفحه للأخبار والتعليقات.



بينما أقف أنا هناك... أرتدي غطاء رأس بلاستيكيًا وغطاء حذاء من نفس الخامة... وبجواري تقف فتاة نحيلة ترتدي نظارات كبيرة وتغطي شعرها الخشن الملتف بغطاء مشابه، وتنتحب في صمت.

ـ كفاية بقى يا آنسة... الراجل لسه معانا الحمد لله.

ـ تعب أوي يا أستاذ أكرم... تعب وهو ما بقاش قد كل ده.

أنظر لها بطرف عيني... نظراتها للجسد العجوز الراقد على الفراش ليست نظرات تلميذة لأستاذها... ليست نظرات ابنة لأب.

اختلاجة صغيرة في إصبعه المتصل بجهاز قياس نبضات القلب... وارتعاشة في جفنه تقول إن العجوز ليس في غيبوبة كاملة... هو نائم لبعض الوقت... نائم وسوف يستيقظ بعد قليل ليملأ الدنيا بدخان سيجارته السوبر، ويلقي بالكلمات الحكيمة كنبي من عصور بني إسرائيل.

ـ لو سمحتم يا جماعة نسيب المريض يرتاح شوية.

طبيب بدين بلا نظارات يسيل العرق أنهارا فوق جبهته العريضة... ويشير بيده إلينا كي نخرج من الرعاية المركزة.

ـ اخرجي انتي يا إيرين... أنا عايز الدكتور.

ـ بس حضرتك عشان...

ـ اخرجي يا إيرين.

يبدو أن نظرات عيني بلا نظارة كانت حازمة بما فيه الكفاية كي تطأطئ رأسها، وتلقي نظرة أخيرة على العجوز النائم وتغادر الغرفة.

ـ طيب أنا مش عايز أضيع وقتك... الحقيقة عايز أعرف حالة الدكتور علام بكل صراحة.

ـ حضرتك تقرب للدكتور.



ـ تقدر تقول إني زي ابنه.

تأبط ذراعي كأني صديقه العزيز... وجرني جرا إلى مكتب في طرف حجرة الرعاية يبعد أمتارًا قليلة عن فراش الدكتور علام.

ـ الدكتور عنده شوية مشاكل في القلب... ودي حاجات طبيعية بتحصل في السن ده مع التدخين الكتير وشرب القهوة بكثافة... بس المشكلة إن الدكتور رئته مش كويسة.

ـ بمعنى؟

ـ بمعنى إننا هنعمله رنين مغناطيسي عشان نتطمن عالرئة... وهيفضل معانا هنا شوية.

صوت حشرجة تأتي من ناحية فراش الدكتور علام... فنلتفت كلانا إليه... هل يداه تهتزان فعلا وإصبعه السبابة يرتفع مشيرا لشيء ما؟ أم أن هذا من تهيوءات قلة النوم؟

ـ أكرم...

قالها بصوت متحشرج مكتوم وجفناه يتراقصان محاولا فتح عينيه... إلا أن عيناه صدمتا بالضوء الأبيض فأغلقهما من جديد.

جاثيًا على ركبتي واضعًا يدي فوق يده:

ـ أنا هنا يا دكتور.

ـ أنا عايز... عايز.

ـ ما تريح نفسك شوية الله يكرمك.

ابتلع ريقه بصعوبة بالغة... وراح يهمس لي بصوت متحشرج... همسات ميزت فيها حروفًا وكلمات متخبطة لم أفهم منها شيئا... هناك رسالة ما يحاول العجوز أن يرسلها لي لكن قلبه الواهن لم يسعفه.



- أرجوك كفاية كده... سيبه يرتاح شوية.

رفعني من ذراعي وراح يسحبني بينما أحاول أن أنطق بأي شيء... أي شيء يمكن أن يصل إلى الدكتور علام كي يجيبني، إلا أن اهتزازات شفتيه والرجفة في أصابعه أخبرتني أن الوضع حرج.

وأن الطود العظيم قد قرر أن الوقت قد حان للراحة.

بينما أخلع الأكياس من فوق حذائي البالي ورأسي الذي تبيض شعيراته بسرعة البرق... رحت أحاول استرجاع الكلمات والحروف التي حاول إخباري بها.

إيرين هناك تنظر إلى ساهمة وعيناها تحبسان دموعا لا تخفى إلا على أعمى... هذه دموع كثيفة لو تساقطت الآن لأغرقت الممر الكئيب وزادته كآبة وسوداوية.

لنجرب تكنيكا مفيدا هنا...

- إيرين... تفتكري آخر حوار بينك وبين الدكتور؟

- الحقيقة كانت رسالة أنا بعتهاله وهو رد عليّ.

- تفتكري قالك إيه؟

دفعت النظارة بطرف إصبعها ثم أخرجت هاتفًا محمولا صغيرا، من طراز قديم نوعًا، من جيب البنطال الجينز... وراحت تقلب الأزرار.

- بعت قولتله إن العنصر التاسع هو الفلور.

- جميل ورد عليكي قالك إيه؟

- قالّي... ده اللي عايزنا نفهمه.

- هو مين اللي عايزنا نفهمه؟

نظرتْ إليّ في حيرة وهزت كتفها معبرة عن عدم فهم واضح.



ـ أيوه يعني إيه... ما رديتيش عليه؟

ـ اتصلت بيه بعدها بنص ساعة ما ردش... ولما ما ردش عليّ بعد رابع مرة قولت أكيد مش فاضي وهيكلمني بعدها... ما كنتش عارفة إنه يا حبيبي كان...

الكلمات تحتبس في حلقها... والعبرات تحتشد فوق أسوار رموشها كما قال نزار قباني.

لا لن أسمح بسقوط أمطار الآن، أو فلتسقط الأمطار وأنا لست هنا.

ـ طيب... إنتي هتروّحي دلوقتي.

ـ أنا مش هسيب الدكتور لوحده.

ـ مفيش فايدة من قعدتك هنا... أنا كمان عندي مشوار مهم لازم أعمله... وبكرة الصبح نتقابل هنا في معاد الزيارة.

أومأت برأسها موافقة وهي تنظر إلى باب حجرة الرعاية المركزة... بينما رفعت يدي محييًا إياها بلا اكتراث جارًا قدميّ جرًا إلى المصعد.

وما إن وطأت قدماي الإسفلت الساخن من شمس هذا الصباح... حتى أخرجت الهاتف المحمول وبحثت عن رقم ما، متجاهلا في طريقي آلاف الرسائل على واتس آب، ومئات من المكالمات الفائتة من سمر.

وما إن وصلت إلى الرقم حتى ضغطت زر الاتصال راجيًا أن يجيبني هذه المرة.

ـ ألو... عدول... إزيك يا معلم.

ـ إيه يا كبير عامل إيه... بقالي زمن ما سمعتش صوتك.

ـ أنا عايز منك خدمة الحقيقة ومحدش هيفيدني غيرك.

ـ صوتك مش مريحني... بس اؤمرني وربك يسهل.



أتنحى جانبًا هامسا له باسم لا يعرفه... راح يستوضح مني وأنا أكرر الاسم.

ـ أيوه، عايز منه إيه؟

ـ عايز أعرف إذا كان في مصحة من المصحات هنا في مصر.. أوصلّه إزاي.

ـ بسيطة... أول خطوة نعرف هو عندنا هنا ولا لأ.

أصوات تأتي من بعيد عبر الأثير لنقر بأصابع ماهرة على لوحة مفاتيح لجهاز كمبيوتر... ثم صوت عادل يأتي بصدى صوت يخبرني أنه يحدثني من سماعة خارجية.

ـ قولتلي اسمه إيه بقى؟

أسحب نفسًا عميقًا يحرق خلايا رئتي... وأكرر على مسامعه الاسم الذي أحفظه عن ظهر قلب: سيف عبد الفتاح... سيف الدين إبراهيم عبد الفتاح.

* * *

(الدكتور سيد بدر... مستشفى متميز... القاهرة)

بدين... حاد النظرات... يرتدي عدسات لاصقة بلون أسود قاتم فوق عينيه، تسببان له احمرارا متكررا بعد ساعات طويلة من العمل في وردية الرعاية المركزة.

تخرج منذ خمسة أعوام... مثله مثل أي طبيب من دفعته من أبناء الطبقة الوسطى... احتفل به أبواه بالزغاريد والتهليل وزجاجات الكولا وأكواب الشربات الأحمر... ثم صنع له أبوه بروازًا أنيقًا وضع فيه شهادته المطبوعة على ورق فاخر بخط ثلث أنيق... دليل تخرجه الذي أصبح ورقة.



سبع سنوات من العذاب والعذاب والعذاب... تحولت إلى ورقة في برواز أنيق على حائط تقشرت طبقة دهانه كريمية اللون.

يجلس الآن على مكتب معدني في طرف حجرة معقمة تحتلها ستة أسرّة، تفصل بين كل منها ستارة تقف فاصلا بين كل مريض وآخر... ستارة تُخفي كل مريض عن الآخر وكأنهم واعون لما سوف يرونه... لطالما أثارت سخريته هذه الستائر... لكنها هناك وستظل هناك كما سيظل هو هناك خلف المكتب المعدني حتى تدق الساعة دقتها العاشرة بعد غروب الشمس... فينهض خالعًا الروب الأبيض النظيف المكوي بعناية... ويغسل يديه بكحول أثيري، ثم يرتدي سترته مهترئة الأطراف، وينطلق باحثًا عن ميكروباص يقله إلى مثواه الأخير في البصراوي.

الحقيقة أنه أتى هذه المرة بمحض إرادته... أصر على أن يستبدلورديته مع زميلته الأنيقة بنت الأصول، مقابل تذكرتي سينما لها ولخطيبها الأنيق ابن الأصول... تذكرتا سينما ابتاعهما خصوصًا لهذه الليلة، وادعى أمامها أنه لا يحب أفلام الرعب لأنها تثير اشمئزازه... بينما هي لا تكف عن الحديث عن أفلام المناشير والأشباح وكل هذه الأشياء الداعية للبهجة.

يريد أن يكون هنا بجوار ذلك العجوز كما طُلب منه.

كما جاءه الرجل فجر اليوم وهو موشك على الرحيل... حاملا في يده التذكرتين اللتين سيدعي أنه اشتراهما بنفسه، وهو لا يملك سعرهما بالطبع... وظرفًا به عشرون ألف جنيه.

مقابل أن يبدل تلك الوردية وأن يبقى في الرعاية المركزة حتى مساء اليوم.

عشرون ألف جنيه رقم لا يعرف كيف يحمله... مئة ورقة من فئة المئتين العريضة الملونة بألوان زاهية... ألوان أزاغت عينيه، إلا



أن جزءا ما يسمى ضميرا في ركن قصي هناك قرر أن يتحدث ببضع كلمات.

- والمقابل؟

- ولا حاجة... عايزك تقعد في الوردية معاه وتخلي بالك منه وبس.

- وبس؟

- آه وبس.

ثم تركه الرجل ورحل.

تركه وبين يديه مظروف به عشرون ألف جنيه... وتذكرتا سينما سوف يمنحهما رشوة لزميلته وخطيبها حتى تترك الوردية.

إلا أن المكالمة جاءته قبل العاشرة بأربعين دقيقة.

- أيوه مين؟

- انزل قابلني تحت عند الاستقبال.

- إنت مين؟

- إنت عارف أنا مين.

شيء ما في صوت الرجل قال إنه هو... زائر الفجر الغامض صاحب الهدية... رغم أنه مشوش ولم ينم سوى ساعة فوق المقعد المعدني غير المريح، فإنه يعرف أنه هو.

رفع جسده البدين من فوق المقعد ومنح الممرضة بضعة تعليمات لم تفهم أغلبها، إلا أنها هزت رأسها وهي تسحب قطعة اللادن فوق لسانها، وتلوكها مطلقة صوت فرقعة شبيهة برصاصات مسدس كاتم للصوت.

هبط درجات السلم في هدوء لأن المصعد كان معطلا - كالعادة -



واقترب من طاولة الاستقبال باحثا عنه.

الهاتف يرن من جديد.

- تعالى يمين الكاونتر وخش الممر اللي بيدخل عالعيادات... أول أوضة هتلاقيني هناك.

- لازمتها إيه الهلكة دي؟

- اسمع اللي بقولك عليه.

الخط ينغلق في وجهه... فينظر إلى الهاتف المحمول متبرمًا... ثم يتذكر العشرين ألف جنيه فتعود أطرافه للعمل ويحث الخطى نحو الغرفة المطلوبة... عيادة العظام التي لا تفتح أبوابها إلا يومين في الأسبوع، في هذا الملحق المتميز لمستشفى حكومي.

الغرفة مظلمة كقبر... الضوء لا يعمل من جديد... يبدو أن كل شيء تعطل اليوم.

- عملت اللي قولتلك عليه؟

جفل فتعثر في مقعد وكاد يسقط لولا أن التقطته يد صلبة أوقفته في قلب الظلام، بينما عيناه لم تعتد بعد على ظلمة الغرفة ولا على شعاع الضوء الخافت الآتي من الممر.

- لازمته إيه الأكشن ده؟

- دي مش إجابة سؤالي.

- آه كله تمام... الراجل نايم زي الملايكة فوق، وتنفسه منتظم وضربات قلبه زي الفل.

- برافو عليك... كده انت شاطر.

رائحة احتراق سكر أو حلويات تنتشر في الغرفة مصحوبة بصوت مجدد الهواء... رائحة طيبة استنشقها قبل أن يعي عقله الذي بدأ



في الاهتزاز أنه يستنشق شيئًا طيب الرائحة يمنحه استرخاء و...

ساقاه كعودين من تلك الإندومي التي حضّرها في منتصف الوردية فوق موقد في المعمل... ويداه لا تقدران على حمل هاتفه المحمول وهو يوشك على...

ـ الغاز ده اسمه سيفوفلوران... أظن إنك ممكن تكون سمعت عنه في سكشن جراحة في الكلية ونسيته وما فكرتش تسمع عنه تاني... المهم إنه مش هينيمك أوي... إنت بس هتفضل مبسوط كده شوية لحد ما آخد الظرف ده من جيبك وامشي... وبعد نص ساعة هتطلع تدور عليّ في كل حتة ومش هتلاقيني... وبعدها هتطلع على الرعاية عشان تسلمورديتك للدكتور اللي جاي بعدك... وانت بتلعني في سرك وبتلعن الحلم اللي أنا بخرته تاني بعد ما كنت فاكر إنك ماسكه في إيدك.

الصوت يصمت للحظة... بينما يسقط هو أرضا وظهره للحائط... يشعر بذلك الخدر يسري في أطرافه ويرغمه أن يغلق عينيه المحترقتين بفعل العدسات.

ـ بس صدقني ساعتها هتبقى آخر حاجة بتفكر فيها إنك خسرت العشرين ألف جنيه... آخر حاجة والله يا... يا دكتور.

وكان هذا آخر ما سمعه من كلمات.

قبل أن يسمع صوت باب يفتح ويغلق.

إنه يحلم... لا بد أن هذا حلم.

كان هذا آخر ما قاله لنفسه قبل أن يغمض عينيه.

بينما هناك على ارتفاع طابقين... كان دكتور علام يفتح عينيه لتقعا على وجه أنثوي صلب يبتسم في وجهه ابتسامة عرف معناها.

عرف معناها عندما رأي ـ من خلف نصف جفنه المفتوح ـ ذلك المحقن



ينغرس في ذراعه حتى آخره.

* * *

(سيف الدين عبد الفتاح... منتجع نفسي... القاهرة الجديدة)

أقف خلف باب زجاجي فخم... زجاج براق لامع قد تم تنظيفه لتوه، فصار كأنه شفاف حتى كدت أصدمه عندما انعطفنا يمينًا من الممر المطلي بلون أبيض هادئ.

عادل... صديق قديم... وطبيب نفسي يؤمن بأن المشكلات معروفة وأننا نعرف حلها... لكننا لا نقوى على البحث عن سبل علاجها ونجبن أمامها فنختار أن نتجاهلها... نتجاهلها ظنًا أنها ستختفي من تلقاء نفسها لنكتشف أنها تكبر وتعود من جديد في صورة أخرى.

نقف خلف الباب ويشير لي ماسحًا رأسه الأصلع.

- هو اللي قاعد هناك ده؟

- آه هو... خاسس شوية، بس هو.

هناك على مقعد معدني أنيق أمام طاولة من نفس الصنع، يجلس سيف عبد الفتاح.

قوامه البدين قد نقص بضعة كيلوجرامات... ومقدمة رأسه قد خسرت بضع شعيرات... لكنه هو.

يمسك في يده سيجارة أجنبية وفي اليد الأخرى قلمًا من نوع الـ Permanent Marker ذا رأس رفيع لين وجسد بلاستيكي أزرق.

- زمانه بيتعذب عشان يحل الكلمات المتقاطعة بالماركر.

- التعليمات إن يبقى مفيش أي آلات حادة بعد الباب ده... بس انت عرفت إزاي إنه بيحل الكلمات المتقاطعة مش بيكتب ولا بيرسم مثلا.

ابتسامة باهتة علت وجهي وأنا ألتفت نحوه... ففهم سببها وأشاح بيده



ثم أشار لي كي أعبر من باب زجاجي آخر.

ـ خد الكارت ده خليه معاك عشان تخرج بيه... الباب ده بيفتح من ناحيتنا هنا بس.

ـ وماله.

أخذت البطاقة الممغنطة ووضعتها في جيب قميصي وأنا أتساءل عن إجراءات الأمن في هذا المنتجع النفسي ـ وهو اسم منمق لطيف للمصحة النفسية والعقلية ـ ثم عبرت الباب قاصدًا الطاولة.

وما إن اقتربت حتى رفع رأسه ونظر لي وعلى وجهه ابتسامة واسعة...

ـ أكرم فهمي... والله فيك الخير.

ـ إزيك يا سيف باشا.

ـ سيف بس، الألقاب اتلغت.

ـ إزيك يا سيف بس.

ـ الحمد لله يا أكرم بس... اقعد.

سحبت المقعد المقابل وجلست وأنا أختلس النظر إلى ورقة الكلمات المتقاطعة التي قارب على الانتهاء منها، وما إن نظرت له حتى وجدت عينيه تنظران في نفس اتجاه الورقة مبتسمًا.

ـ فاضلّي سطر أفقي وأخلص.

ـ طب ما تقولّي يمكن أساعدك.

ـ بتعرف تحل كلمات متقاطعة؟

ـ هي كيميا يعني!

ـ طب حل يا سيدي.



ثم أمسك الورقة وقربها من عينيه وهو يقرأ...

- نشاط رياضي نفسي يساعد على الاسترخاء... من أربع حروف.

- يوجا.

- تصدق صح.

ثم راح يملأ الفراغ بطرف القلم السميك، وهو يردد الحروف خلف إصبعه الذي ينقشها فوق الورقة.

- يوجا... يوجا زي اللي انت بتلعبها دي.

- طبعا مستني مني أقولك انت عرفت منين.

الوغد البدين كان يعرف حل الكلمة وألهمه عقله أن يلعب معي لعبته الهولمزية الدائمة...

- ياريت، بس أنا عارف إنك مش هتسأل.

- لا المرة دي الفضول قاتلني أعرف.

- متأكد؟

- إنت عايزني أسألك بإرادتي الحرة الكاملة.

أطلق ضحكة عالية مجلجلة أمام نظرات عيني الساخطة... ثم أشار إلى يدي اليمنى.

- من مفصل الرسغ... إنت بتلعب يوجا تقليدية، اللي بتسند فيها الرسغ على الركبة في الوضع جالسًا... ومفصل الرسغ بآخر الإيد من تحت مناطق جلدية مختلفة شوية ولونها بيغمق مع الضغط عليها... غير العلامة اللي في مقدمة راسك واللي ضعيفة جدا وما تشوفهاش غير عين زي عيني، واللي هي في مكان نقطة العين الثالثة بتاعت الشاكارا... وضيف عندك بقى كمان إن أطراف صوابعك بدأت تنشف، يعني انت بتعمل تمارين روحية فيها لمس للحاجات السخنة



الفترة اللي فاتت... وكل ده له سبب من اتنين... يا انت بقيت بوذي يا بتمارس يوجا... بس خلاص.

ـ تفسير مش بطال ولو ان مستواك قلّ من آخر مرة قابلتك فيها... ببساطة كنت ممكن تبص على غلاف الكتاب اللي في إيدي وتعرف إنه عن الشاكارا واليوجا.

ـ غلاف كتاب؟

قالها كأنه يبصقها... كأنني ألقيت في وجهه بدلو من البول استهانة وتحقيرًا... سيف عبد الفتاح لا ينظر لأغلفة الكتب، بل ينظر إلى ما لا يراه الآخرون.

ـ طيب نخش في الموضوع.

ـ ياريت.

ـ جاي عشان تستشيرني في إيه؟

ـ باسل محسن عبد القادر.

ـ رتبته؟

ـ وعرفت منين أنه ظابط؟

ابتسم ابتسامة غامضة لم أستطع تفسيرها أبدا... وأراح جسده إلى الخلف قليلا.

ـ كمل، وبعدين؟

ـ رائد... مباحث المعادي.

ـ يااااه... الله يرحم أيام مباحث المعادي... دي كانت أيام جميلة... يا ترى عبد الباقي لسه بيخدم هناك ولا طلعوه معاش؟

ـ عبد الباقي مين؟



ـ لا بص أنا بحب آخد وادي مع نفسي شوية... فما تاخدش على كلامي أوي طالما ما وجهتوش ليك.

أخرجت علبة سجائري من جيب بنطالي، وأشعلت سيجارة وهو يحدق مضيقًا عينيه في القداحة.

ـ عجباك الولاعة؟

ـ ما بحبش الولاعات المعدن... غير إنها ممنوعة هنا كمان.

ـ نرجع لموضوعنا... تعرفه؟

ـ لا... بس أعرف اللي يعرفه ويعرف يوصلّه.

ـ تمام... رقم موبايل أو عنوان يبقى كتير خيرك.

ـ تلعب شطرنج؟

نظرت له فوجدت الابتسامة الطفولية والنظرات الجذلة فوق عينيه الواسعتين... حتى إن ملامحه قد انقلبت لملامح طفل في العاشرة التقط رجلا كبيرا ليشاركه لعبته المفضلة.

ـ ألعب وماله.

مد يده وتناول كيسًا قماشيا كان يقبع بالقرب من المقعد... ثم فتحه وقلب محتوياته فوق الطاولة، لتظهر القطع الخشبية المطلية بطلاء أسود وأبيض رديء.

راح يرتب القطع البيضاء أمامه بلا رقعة وهو يشير لي بيده كي أرتب الجيش الأسود.

ـ إنت اخترت الأبيض ليه؟

ـ عشان ألعب الأول... ما بحبش أكون رد فعل.

ـ وفين المربعات؟



ـ تخيلها.

ـ نعم!

ـ تخيلها... عيب يعني لما ما تعرفش تتخيلها.

ثم ابتسم ابتسامة ساخرة جذلة وهو يرتب القطع، فرحتُ أحاول ضبط القطع على الطاولة في مقابلة قطعه.

ـ مرعي... رقم موبايله ٠١٠...

راح يمليني الرقم وأنا أسجله على الهاتف وأحفظه.

ـ هتكلمه وتقابله مكان ما يقولّك.

ـ وده شغلانته إيه؟

ـ بنك معلومات... يلا دورك.

كان قد حرك حصانه ليقفز فوق صف البيادق البيضاء.

ـ مش هتبدأ بالعساكر؟

ـ ما تبقاش تقليدي يا كيمو... مش بيقولولك كيمو برضه؟

ـ يعني.

ـ طيب يلا دورك.

حركت البيدق الأسود خطوتين للأمام فنظر لي في امتعاض، ثم قفز بحصانه من جديد ليصبح في جوار البيدق.

ـ وإيه تاني؟

ـ مفيش.

ـ لأ فيه... ببساطة مش هتقعد تستحمل رزالتي وتلعب معايا دور شطرنج لو مش عايز مني حاجة تاني.



- خالد عوض مصطفى.

- ماله؟

حركت الفيل بحركته المائلة ليقف مهددًا حصانه الأبيض.

- السر كله وراه.

- مش ده بتاع مقالة العنصر التاسع اللي اتنشرت في الموقع اللي انت رئيس تحريره؟

- إنت متابع بقى.

- أحيانًا بيسبولنا ساعة عالنت كده نزود فيها الاكتئاب شوية... وبعدين المقالة حلوة.

- هي حلوة فعلا وإلا ما كنتش نشرتها.

- وده غرور ولا ثقة؟

- الاتنين.

ابتسم وهو يحرك بيدقًا أبيض ليفسح مكانًا لحركة الفيل من خلفه.

- السر ما بيبقاش ورا الفريسة يا أكرم... السر دايمًا ورا الصياد.

- بمعنى؟

- بمعنى إنك لو بطلت تبص تحت رجليك للجثة... وبصيت قدامك للي خلاها جثة هتعرف.

- وأجيبه منين قبل ما أجيب سر الجثة؟

- سر الجثة يجيبه الطبيب الشرعي... وانت مش طبيب شرعي يا كيمو.

حركت الفيل ليقف في مكان مُغر لفيله الأبيض عندما يتحرك.



- إنت عايز تضحي بالفيل بتاعك ليه؟

قالها جادًا وعيناه لا تفارقان الرقعة... جادًا كأنه بصدد اتخاذ قرار الحرب على جيشي وتحطيمه تحطيما... وهو ما كان سيبرع فيه إذا استمر الدور كما هو.

إلا أن الهاتف راح يعوي في جيبي... فرفعته لأجد مكالمة من إيرين.

- إلح... دكتور عل... مش... ود

- الشبكة وحشة يا إيرين مش سامعك.

الصوت يتقطع... أهو بفعل الشبكة فعلا؟ أم بفعل بكائها؟ أم...؟

- علّي صوتك شوية.

- بقولّك دكتور علام اختفى... مش لاقيينه في الرعاية ولا في المستشفى كلها.

* * *



الفصل الثالث: الذروة

«إن البحث عن العنصر التاسع هو هدف كل إنسان، وليس فقط كل ساحر كما تقول الحكاية، كل منا يقضي حياته في البحث عن هذا العنصر وإن اختلفت المسميات والغايات، فرجل الأعمال الناجح الذي أحكم السيطرة على عناصره الثمانية فأصبح من ذوي المليارات، لكنه لم يُرزق الذرية، سيظل يبحث عن عنصره التاسع كي يحكم السيطرة على حياته بالكامل، والموظف الذي يقل أولاده كل يوم في حافلة مزدحمة ويأتيهم كل يوم بدجاجة عجوز وأرغفة الخبز فينامون في رضا، يبحث عن المال الوفير حتى يصل إلى عنصره التاسع»

خالد عوض

مدون مصري



قبل الذروة بيوم

سيرك متكامل الأركان في ممر ضيق يقود إلى غرفة رعاية مركزة.

أفراد شرطة وممرضون، وضابط عصبي متوتر يأكل سيجارة أجنبية بين أسنانه وينفث دخانها كسيارة فيات خربة... وأنا وإيرين.

نقف هناك في طرف الممر نتابع المعارك الكلامية والدخان المتصاعد... والضابط المتوتر.

أمسك بهاتفي وأنظر إلى الساعة... إنها السادسة مساء هنا، لذا سيكون عماد قد انتهى من عمله وهو الآن يعب الطعام الجاهز عبًا أمام التلفاز.

أرسل له رسالة بما حدث فيأتيني تقرير الوصول له... ثم أضع الهاتف من جديد في جيبي.

يأتي إليّ ذلك الرجل في ثياب مدنية... شارب كث غير منمق وعينان وقحتان...

- إنت واقف هنا بتعمل إيه؟

- إنت بتكلمني أنا؟

- أمّال بكلم أمي!

- طب اجري شوف شغلك يلا.

- نعم يا روح أمك!

رفع كف يده وأمسك بتلابيب قميصي فسمع صرخة هادرة اخترقت الفضاء المحيط بنا...

- إيه يا جمعة... إنت اتجننت ولا إيه!

- عيل ما اترباش يا باشا ولازم يتربى.



ـ سيبه وانزل تحت.

ـ بس يا باسل باشا...

ـ يلا يا روح أمك على تحت.

يترك تلابيبي فأنظم قميصي وأنا أنظر له بتحد... ثم حانت مني نظرة إلى إيرين لأطمئن أنها لم تتحول بعد إلى رماد تذروه الرياح، من أثر هذا الاشتباك الرقيق.

ـ هُم على طول كده يا أستاذ أكرم؟

ـ أنا اتعودت على كده عادي... المهم انتي لازم تروّحي.

ـ أنا مش هسيب المكان هنا غير لما دكتور علام يظهر.

ـ مش هيظهر هنا... عشان نبقى متفقين يا بنت الحلال... دكتور علام مش هيظهر هنا.

الضابط المتوتر يشعل سيجارته الخمسين ويقترب مني... وجهه الجبسي هربت الدماء منه...

ـ هي بتعمل إيه هنا؟

ـ دي إيرين تبقى...

ـ عارف تبقى مين... هي بتعمل إيه هنا؟

إيرين تنظر له في تحد غريب من خلف نظارتها الضخمة...

ـ أنا مش هتحرك من هنا غير لما دكتور علام يظهر.

ـ بصي يا آنسة إلين...

ـ إيرين.

ـ أيًا كان اسمك... أنا هسيبك خمس دقايق هنا لحد ما تهدي وتروّحي من نفسك... عشان بعد كده هتروّحي غصب عنك... أظن كلامي



واضح.

نظرة التحدي تزداد... بينما أتصور ما يمكن أن يفعله أمناء الشرطة الرقيقون بها عندما يفتح باسل الأقفاص.

- امشي يا إيرين.

- بس...

- امشي بقولك... ولما نوصل لحاجة هعرفّك أول بأول.

نظرت لي في رجاء وتوسل فواجهتها بنظرة حاولت جعلها حازمة... إلا أن دفقات القلق والضيق ملأتها... فأحكمت حقيبتها الضخمة إلى جسدها وانطلقت.

وهنا رن هاتفي أخيرًا:

- ساعة عشان تتصل!

- فيه إيه... إيه اللي انت باعته ده؟

أتحرك مبتعدًا عن باسل الذي يراقبني بعينيه محاولا اختراق كلماتي الخارجة من شفتيّ.

- فيه مصيبة... القضية اللي كلمتك عنها بتتعقرب... الدكتور علام اتخطف.

- يعني إيه اتخطف... وازاي أساسًا طبيب شرعي بيحقق في قضية مرتبطة بمهران العيسوي والأحماض والهري ده ما يتحطلوش حراسة!

- مش عارف ومش قادر أعرف.

زفرة كادت تحرق الموجات التي تحمل صوته الخشن إليّ.

- مين عندك من مباحث العاصمة؟

- عندي الظابط إياه اللي حكيتلك عنه بتاع قسم المعادي.



- قسم المعادي إيه... إنت مش في دايرة قصر النيل باين؟

- شكله واصل أوي وبيعرف يساوي أموره.

أطلق سبة بذيئة يصف فيها أشياء تخص باسل ثم تابع...

- طب اقفل انت وأنا هتصرف.

- هتتصرف إزاي يعني؟

- هبعتلك حد بيفهم يعرف يتعامل... وانت ما تتحركش من عندك لحد ما يجيلك.

أومأت برأسي وكأنه يراني، ثم اكتشفت أنني أخرق.

- بالمناسبة ابقى افتح أم إيميلك... عشان اللي طلبته جبتهولك وبعتهولك من امبارح وانت ولا حتى عبرتني بكلمة شكرا.

- شكرا يا عماد... حبيبي يا عمدة.

- مش بنفس.

- إنت فيك حيل تهزر يا عماد... إحنا في خرا ولا في شم ورد!

- إنت لسه عضمك ما نشفش بعد كل اللي شوفته معايا؟ انشف كده عشان تعرف تفكر.

ثم سمعت صوت تنبيه ما يخبرني بأن المكالمة انتهت... انتهت ربما لأن رصيد عماد قد انتهى، أو لأني كنت أقترب من باب المصعد، أو أنني أغلقت الخط متعمدا حتى أتفادى كلماته المكررة.

لا بد أن يصفو ذهني... لا بد أن أفكر.

ذلك المتحذلق البدين قال لي (لو بطلت تبص تحت رجليك للجثة... وبصيت قدامك للي خلاها جثة هتعرف).

ماذا كان يقصد؟



هي كلمات مما نلقيه على مسامع من يطلبون منا الاستشارة، مدعين بكل تبجح شفافية الأنبياء وفراسة الصالحين والأولياء.

لو نظرت أمامي الآن فسوف أجد طبيبًا شرعيًا مخطوفًا وضابطًا عصبيًا وإمبراطورًا لصناعة الدواء وفتاتين مذعورتين، وأنا.

أرى وجهي في مرآة علقها أحدهم أمام المصعد... ذقني النابتة والهالات الداكنة تحت عيني وذلك العرق الناضح في جانب رأسي.

أزيح وجهي من أمام المرآة، وأفتح الهاتف كي أقرأ البريد الإلكتروني الذي أرسله عماد.

- إنت واقف بعيد ليه يا أكرم باشا؟ ما تتفضل معانا هنا شوية.

فأرفع رأسي لأرى أمامي وجه باسل البلاستيكي.

وهنا جاءتني فكرة.

* * *

قبل الذروة بعشرين ساعة

تدخل إيرين من باب المنزل... تتجه مباشرة لغرفتها... تغلق الباب خلفها في عنف... تلقي بحقيبتها العملاقة فوق الفراش وتخلع حذاءها الخفيف ونظارتها العملاقة.

ثم تطلق لعينيها العنان لكي تفرغ ما حبسته طوال الطريق.

تبكي كأنها تبكي أباها... كأنها تبكي خالها... كأنها تبكي حبيبها.

تبكي بلا انقطاع... حتى وصل صوت بكائها إلى الخارج.

الباب يدق ثم تقتحم أختها الصغرى الغرفة...

- إيه ده يا إيرين... فيه إيه مالك؟

- اطلعي برة... وما تدخليش تاني غير لما أسمحلك تدخلي.



ـ طيب خلاص أنا غلطانة... إولعي.

تصفع الباب خلفها بينما تكمل إيرين وصلة البكاء...

أين ذهبت بحق العذراء أيها القديس العجوز؟

أين ذهبت؟

صوت نقر على الباب من جديد... لن تصمت هذه المتطفلة قبل أن تضرب برأسها الجميل حائط غرفتها، ثم تلقي بها من النافذة.

تنهض غاضبة والدموع تغرق وجهها بالكحل الذائب... حتى تحولت إلى محارب من قبائل الأباتشي... وتفتح الباب صارخة...

ـ قولت مش عايزة زفت يخش عليّ.

ترفع أختها لها بورقة مطوية... فتنظر لها وقد ألجمها رد الفعل... تتناولها وتصفع الباب خلفها

تفضها وتمر بعينيها على محتواها.

ثم تضع قدميها في الحذاء وتركض مغادرة المنزل، كأن شياطين العالم السفلي تلاحقها، بينما الورقة تستلقي مفتوحة على الأرض، وعليها خطت حروف بخط عربي أنيق، «إذا كان يهمك أمره... ستجدينه عندي... شارع ٩ بالمعادي بعد ساعة من الآن».

* * *

قبل الذروة بخمس ساعات

صوت جلوريا جانور يشدو من مكبر صوت كبير في طرف الغرفة.

بينما تجلسين يا سمر ممسكة بهاتفك... وتنقرين بأصابعك التي طليتِها منذ لحظات.

صوت جلوريا جانور القوي يردد...



«في البداية كنت خائفة ومحبطة

ظللت أفكر أنني

لن أستطيع الحياة من دون أن تكون بجانبي

لكني أمضيت ليالي عديدة

أفكر كيف أن ما فعلته معي كان خطأ»

تنقرين بأصابعك فوق شاشة الهاتف... بل تضربينها ضربًا في عنف وتكتبين الكلمات وأنت ترددينها في غل.

- أنا ما بقتش طايقة أمثل أكتر من كده... استغلالك لي بقى مبدأ حياتك من يوم ما عرفنا بعض... وأنا بصراحة تعبت.

تأتيك كلمات من تحادثينه على الشاشة بهدوء وبطء، وجلوريا جانور تردد في غضب...

«لكنني ازددت قوة

وتعلمت كيف أتخطى ذلك»

- إنت بني آدم بارد ومستفز... وبعدين إيه الماسنجر اللي بنتكلم عليه ده... وإيه الصورة اللي انت حاططها دي... أنا خلاص ما بقتش عايزة أكمل في القرف ده تاني... يوم ما طاوعتك ورميت نفسي في السكة دي كنت عايزة أساعدك عشان متعاطفة معاك ومع قضيتك... لكن اللي وصلناله دلوقتي ده بيجيب دم... عارف يعني إيه دم؟

يأتيكِ الرد مقتضبًا... فتعودين لضرب المفاتيح بأصابعك...

- أيوه قرف... وزفت وخرا كمان... إنت بتسيب الكلام كله وتمسك في دي... أنا ما انكرش إني حبيتك، وكان عندي استعداد أعمل أي حاجة عشان خاطرك... بس خلاص ما بقتش قادرة أكتر من كده... أنا اللي بقولك دلوقتي خلاص إني مش عايزاك.



والآن

«تعود من الفضاء الخارجي

لقد دخلت ووجدتك هنا

وتلك النظرة الحزينة على وجهك»

- مش عايزاك يعني مش عايزاك... أظن الكلام واضح يا بيه... وأظن إنه كفاية أوي أوي اللي انت عملته، واختفي بقى من الدنيا باللي فيها وأولهم أنا.

«اذهب الآن

اخرج من الباب

استدر الآن واذهب الآن... لم يعد مرحبا بك هنا»

جاءتك الكلمات على الشاشة... فجحظت لها عيناك... وأطلقت سبة فاحشة تليق بسائق ميكروباص من الدويقة.

- يا نهارك اسود... إنت أكيد اتجننت... أنا مش مصدقة اللي أنا شايفاه... إنت بني آدم مريض... مريض.

كلمات أخرى تأتي من الشاشة فتزداد عينيك احمرارًا وتحتشد الدمعات فيها...

- يعني إيه عرف أكتر من المفروض؟ إنت إيه؟ في شيكاغو؟ أنا مش هسيبك تئذيه... فاهم؟ مش هسيبك.

ثم تغلقين نافذة المحادثة... وتضغطين على زر يحظر وجوده في حياتك.

ثم بسرعة... تتصلين برقم ما تحفظينه عن ظهر قلب.

لكن الرقم لا يرد.



ـ رد يا أكرم مش وقت توهان خالص.

إلا أني أضغط زر الرد في اللحظة التي تصرخين فيها:

ـ إنت فين يا أكرم ما بتردش ليه؟

ـ أنا في مديرية الأمن... فيه إيه؟ مال صوتك؟

ـ هيقتل الراجل الغلبان عشان عرف أكتر من المفروض... لازم نلحقه... هيقتله.

ـ راجل مين؟

صوت رنات متقطعة ثم اختفى صوتي.

رحت تعيدين الاتصال مرات ومرات وأنت ترتدين ثيابك على عجل، وتربطين حجابك فوق رأسك على عجل، وأنت ترددين بينك وبين نفسك الملتاعة الغاضبة...

ـ مجنون... ورحمة أبويا ما انا سايباك... هوديك في ستين داهية.

تحملين حقيبتك وتهبطين درجات السلم راكضة، وصوت جلوريا جانور لا زال يتردد في أذنك

«هل كنت تظن أني سأنهار

هل كنت تظن أني سأسقط ميتة»

دكتور علام المسكين المريض في خطر... وأكرم في خطر... الجميع في خطر إذا لم... وكأن ناموسة قد حطت على رقبتها فوق الحجاب ولدغتك...

وضعت أصابعك فوق مكان اللدغة... بل ومددت يدك أسفل الحجاب ورحت تتحسسين المكان... ورحت تنظرين حولك إلى بئر السلم الرطب المظلم.



لماذا تشمين رائحة تشبه رائحة تلك الحلويات الرخيصة التي كنت تشترينها لابن حارس بنايتكم؟

لماذا تشعرين بثقل في أنفاسك؟

«حاولت بكل قوة أن أبقى قوية ولا أنهار

حاولت أن أجمع قطع قلبي المحطم»

تقفين فجأة في مدخل البناية... الدنيا تميد بك ولا تقدرين على التقدم خطوة، قلبك يدق في عنف... والعالم يدور من حولك، وصوت جلوريا جانور يتردد كأنه قادم من بئر سحيقة

«سوف أعيش

سوف أعيش»

* * *

قبل الذروة بأربع ساعات

الجالسون في مديرية الأمن في ذلك المكتب كانوا ثمانية: رئيس مباحث العاصمة وستة ضباط وأنا.

أجلس في مقعد جلدي لطيف في طرف المكتب الذي تحول إلى حافلة انعقدت في سمائها سحب الدخان، وتراصت أكواب القهوة المغموسة فيها أعقاب السجائر، وأكواب الماء التي فرغت أنصافها وأرباعها.

- سيادة الوزير بنفسه متصل بيّ من شوية، وعايز فريق بحث يحل الموضوع في أسرع وقت... بهدوء وبدون أي شوشرة أو إعلام.

قالها ضاغطًا على حروف الكلمة ناظرا لي بطرف عينه... فتململت في جلستي.

ضابط شاب اسمه مروان على ما أعتقد نظر لي متابعًا.



- لا ما تقلقش معاليك... الأستاذ أكرم عارف الإجراءات كويس.

أومأت برأسي بلا اكتراث حقيقي... ما يهمني الآن أن يعثروا على العجوز المختطف.

يدق الباب دقات متحفظة مكتومة، فيرفع سيادة العميد عقيرته مانحًا الإذن بالدخول.

يدخل باسل بقامته الممدودة وعينيه الباردتين مؤديا تحية روتينية

- اتأخرت ليه يا باشا... هو انت جاي السينما!

- متأسف يا فندم كنت في...

- خلاص يا باشا... اقعد.

الجالسون في هذا المكتب أصبحوا تسعة.

كل ما ارتبط بهذه الجريمة وحكايتها كان الرقم ٩ مشاركًا فيه... حتى هذه الصدفة.

باسل يجلس على المقعد المجاور لي... للمرة الأولى أراه يهز ساقه من التوتر.

للمرة الأولى أرى عقله فقد السيطرة على طرف من أطرافه فأظهر التوتر.

هل يشعر بما أنوي فعله؟

هل يعلم أني كشفت الأمر، وأني أنتظر فقط اللحظة التي أعلن فيها ما أعرفه عندما أتأكد من أمر أخير فقط؟

انفض الجمع بعد تلقي التعليمات... فخرجوا من المكتب المزدحم إلى ممر شاحب الإضاءة.

باسل يتقدمني بقوامه الممشوق... ألمح ذلك الإصبع في يده اليسرى



يرتعش قليلا، وأصابع يده اليمنى تنثني وتنضم على نفسها.

- باسل باشا...

يلتفت إليّ في حدة... حدة من كان يفكر في أمر قطعت أنا حِباله.

- خير يا أستاذ؟

- ممكن أطلب منك خدمة بسيطة؟

- خير؟

قالها في نفاد صبر واضح

- توصلني في طريقك بس لحد شارع ٩.

ارتفع حاجبه مندهشًا للحظة، ثم عاد لسابق وضعه وأشار لي بيده مرحبًا.

نزلت معه درجات السلم وأنا أرتب أفكاري وأنظر إلى هاتفي كل ثانية.

اللعنة على الرسائل التي تتأخر وقتما نحتاج وصولها.

وعندما وصلنا إلى المدخل رن هاتفي بنغمة الرسائل.

نظرت إلى الشاشة... وقرأت الرسالة على عجل وعيناي يظهر عليهما بريق الانتصار.

وما إن أكملت الحرف الأخير حتى رن اتصال سمر.

- انت فين يا أكرم ما بتردش ليه؟

- أنا في مديرية الأمن... فيه إيه مال صوتك؟

- هيقتل الراجل الغلبان عشان ينتقم... لازم نلحقه... هيقتله.

انقطع الشحن كالعادة... وأصبح الهاتف جثة هامدة.

- خير يا أستاذ فيه حاجة؟



رفعت رأسي نحوه ثم منحته ابتسامة واسعة تليق بما عرفته، أو تخفي بذور القلق التي بذرتها سمر في نفسي.

- لأ دي سمر كانت بتحاول تقولّي حاجة بس الشحن خلص كالعادة.

- لو محتاج تكلمها اتصل من عندي.

- لأ بعدين مش مهم.

نتجه إلى سيارته الكيا السوداء ونتخذ مقاعدنا وننطلق.

نظراته الجامدة الصلبة وقناع وجهه الجبسي الصامت لم يخفيا ما في نفسه.

هل يشعر؟

هل قرأ الرسالة؟

نجلس في السيارة صامتين وهو يعبر النفق إلى صلاح سالم... ينعطف في حدة أسفل كوبري الفنجري متجها إلى الأوتوستراد.

- ألا قولّي يا باسل باشا.

- إيه خير!

يدير المقود على اتساعه يمينًا منعطفا داخل الطريق وسط المقابر.

- الله يرحمه مدفون في مدافن العيلة هنا ولا في مدافن شهداء الشرطة؟

يدوس المكابح بكل قوته فيندفع جسدي إلى الأمام.

- إيه يا بيه كنت هتلبسني في التابلوه؟

- الله يرحمه مين بالظبط؟

أعدل من وضعي فوق المقعد بينما يشعل هو سيجارة ويكمل طريقه.



ـ سيادة اللوا محسن.

ـ الله يرحمه... في مدافن الشرطة.

ـ الله يرحمه كان راجل سمعته زي الطبل... ده أنا لما قولت اسمه بس الناس قعدت تعددلي في محاسنه.

قلتها ساخرا فزاد من ضغطه على دواسة السرعة، وانحرف يسارًا بحدة إلى داخل شارع جانبي.

ـ الفاتحة على روحه يا أستاذ أكرم.

ـ لا سبقتك وقريتها ساعة ما عرفت إنه والدك... وأكيد انت بتقراهاله كل يوم.

ـ وكل ساعة.

ـ بس أظن كده لما نارك بردت... هتقراهاله وانت راضي.

داس المكابح من جديد وانحرف يمينًا فصنعت السيارة صوتا مزعجًا كاد يقلق منام سكان المقابر الآمنين... ثم خلع نظارته الشمسية ونظر نحوي بغضب.

ـ أنا شايفك بتملح لحاجة.

ـ ومين قال؟

ـ يعني إيه لما نارك بردت؟

ـ مالهاش معاني كتير.

ـ قولّي معنى منهم عشان أبقى معاك في الصورة.

نظرت إلى لوحة عُلقت على باب مقبرة هناك مسحت أغلب حروفها.

ورحت أتابع كلماتي التي رتبت لها منذ ساعات.

ـ من حوالي عشر سنين... كان فيه تنظيم سري اسمه الكيماوي...



التنظيم ده نفذ عمليات اغتيال كتير لظباط مهمين في الداخلية باستخدام الأسلحة الكيماوية الخفيفة... تسميم وغازات وحاجات من دي.

ـ التنظيم ده اتصفى فعلا من عشر سنين... بس المعلومات دي كانت في غاية السرية والـ...

ـ مفيش حاجة بتستخبى في بلدنا بعد يناير ٢٠١١ يا باشا... الفيسبوك وتويتر ما خلوش حاجة تستخبى... ممكن سيجارة؟

ناولني سيجارة من علبته الحمراء... ثم ناولني قداحته لأشعلها... أشعر بتلك الرجفة الخفيفة في يده...

الصيد يتحرك الآن متوترا...

ـ المهم إن حبيب العادلي أصدر قرار ساعتها إن التنظيم ده يتصفى بالكامل... مفيش تحقيقات مفيش أحياء... تصفية كاملة... واتكلف اللوا محسن بإنه يتولى المهمة دي.

دخان سيجارته يحمل بين ذراته وجزيئاته توترا يكاد يقتله ويقتلني معه.

ـ وفي ليلة شتاء سوداء... اللوا محسن وصل لمكان التنظيم... وفعلا اقتحم الوكر الإرهابي زي ما بتقولوا في بيانات الداخلية... وصفى هو وفرقة الاقتحام تمانية من عناصر التنظيم...

ـ الله يرحمه ما كانش وراه حاجة غير شغله... وكان مخلص ليه بكل ذرة فيه.

ـ الله يرحم الجميع... المهم إن سيادته ما رجعش من العملية دي... لا هو ولا فريق الاقتحام بالكامل... ما رجعش غير السواق اللي كان سايق عربيته هو... والغلبان شاف بعينه الفيلا وهي بتنفجر قدامه، وقعد محجوز في مستشفى الشرطة وفي مصحة نفسية سنة بيتعالج



من الصدمة.

ـ الله يرحمه، اتوفى بعدها بسنتين.

ـ أهي دي معلومة جديدة عليّ يا باشا.

ابتسمت ساخرًا ملتفتا له... إلا أن نظرات عينيه لم تمنحاني الفرصة كي أكمل ابتسامتي... شيء ما في عينه قال لي إن عليّ أن أقلق مما قد يحدث.

ـ ممكن تخش في الموضوع عشان أنا ورايا شغل مهم.

ـ التحريات اللي كان عاملها سيادة اللوا كانت بتقول إن التنظيم ده مكون من تسع عناصر... أربعة منهم طلبة متخرجين من كلية علوم... تلاتة من كلية هندسة... واتنين من صيدلة... بس سيادة اللوا لما اقتحم الوكر صفى تمن جثث بس.

ثم اقتربت بوجهي منه حتى صارت عيناه في مرمى عيني.

ـ الجثة التاسعة راحت فين يا باشا؟

ـ أكيد انفجرت مع الفيلا لما انفجرت.

ـ مش صحيح... أشلاء الجثث اللي اتجمعت كانت لتمانية بس غير فريق الاقتحام... فيه عنصر تاسع ما كانش موجود له جثة... أو ببساطة اختفى قبل الاقتحام لأنه كان عارف إن فيه اقتحام.

ـ إنت تقصد إيه بالظبط؟

الصيد يحاول الابتعاد عن مرمى السهم... فيقترب أكثر من شبكة الصيد.

ـ اتوفى سيادة اللوا... وساب وراه ولد في سن الشباب... بيلعب كاراتيه وكونج فو وسباحة وبطل جمهورية في كل الرياضات دي... والأول على دفعته في كلية الشرطة... شاب دخلها واسطة بس أثبت



نفسه وكبر شبكة علاقاته، لحد ما اتعين بعد التخرج على طول في مكافحة الإرهاب.

عدت بظهري إلى الوراء وألقيت بالسيجارة من النافذة، وعيناي تعودان إلى لوحة القبر التي مسحت حروفها.

- بس للأسف ما عرفش يعمل حاجة هناك... كل اللي قدر يوصلّه شوية معلومات من هنا ومن هنا... عمل ملف مش بطال راح يجمع فيه كل المعلومات الممكنة عن العنصر التاسع المختفي... وراح يتنطط من مكافحة الإرهاب للمخدرات للمباحث... استغل كل علاقات أبوه وقرايبه لحد ما قدر يوصل لمعلومة مهمة جدا... العنصر التاسع كان بيشتغل عند مهران العيسوي... وكان مصاحب بنته... لأ وكمان ساكن في دايرة القسم اللي هو ظابط مباحث فيه.

- لاحظ إن كلامك خطير ومالوش...

- أنا لسه كلامي ما بقاش خطير يا باشا... كل اللي فات كان مجرد تخمينات ومعلومات من هنا ومن هنا... لكن الكلام الخطير لسه جاي.

الصيد يقترب أكثر من الشبكة... بينما عيناه تلاحظان فقط أن السهم قد شُدّ على قوسه وأوشك على الانطلاق.

- من هنا الخطة بقت مكتملة... شوية معلومات من هنا ومن هناك تيجي من قلب الداخلية نفسها... عن المشتبه فيه وعن مهران العيسوي وعن بنته وعن كل تاريخ حياته من أول يوم فيه... كل الشروط بتنطبق عليه... خريج صيدلة... عبقري... اختفى فترة بعد التخرج ورفض يتعين معيد في الكلية... معندوش جواز سفر يعني ما طلعش برة البلد... كان على علاقة بتلاتة من اللي اتصفوا في الاقتحام... وفوق كل ده وده... عيل وسخ وقذر وعلاقاته النسائية كتير... والكبيرة بقى كانت لما عرفت إنه كان مصاحب بنت مهران



العيسوي وكانت حامل منه... فقولت وليه لأ.

- انزل من العربية حالا بدل ما افرغ الطبنجة في راسك المريضة.

اقترب أكثر من الشبكة يا هذا... اقترب أكثر.

- فضلت تراقبه... تراقب عاداته وتقاليده وشغله وحركاته كلها... شوفته وهو بياخد مريم العيسوي للدائري عشان يحل معاها موضوع الحمل... شوفته وهو بينيمها بغاز السيفوفلوران وهو بيفهمها إنها إزازة برفان هدية جوازهم المرتقب... شوفته وهو بيرمي حمض الهيدروفلوريك على الإزاز وبعدين بيزق العربية عشان تنزل من فوق الدائري وتحصل الحادثة... جريمة كاملة زي ما انت شايف... لولا بس إنك شوفته... وساعتها بس قررت تنفذ.

سحب طبنجته الميري من جيب بجوار مقعده وشعرت بملمسها المعدني بجوار صدغي.

للحظة ارتج جسدي... لكني أيقنت أن الصيد قد وضع قدمه الأولى في الشباك... فلنطلق السهم الطائش حتى يدفع نفسه للوقوع طوعًا.

- ما توديش نفسك في داهية أكتر ما انت رايح... كل اللي بيحصل بينا بيتنقل بالحرف دلوقتي للجماعة في مديرية الأمن... بالمناسبة كانت حركة حلوة أوي إنك تفور قفل الباب قبل ما تشبطه وتقفله... إنت كنت بتشتغل نجار زمان يا باشا؟

- هات الموبايل اللي معاك... بسرعة.

أنظر له في تحد... يده على الزناد وعيناه تضربان وجهي بصواعق حارقة...

القدمان الآن في قلب الشباك.

- الموبايل فاصل شحن يا باشا... اللي اتنقل خلاص من الموبايل التاني... وكلها ساعة وتلاقي نفسك قاعد على كرسي في



النيابة بيتحقق معاك... بس عارف... أنا متعاطف معاك... ما ينفعش برضه واحد يسيب حق أبوه... وبعدين أنا بحترم الذكاء... أحمد علام يجي ويكتب تقرير يقيد الواقعة ضد مجهول... وصحفي يكتب إن الجريمة دي مثال على اختلال موازين المجتمع، وإن القاتل كان لازم يكون هو الضحية مش القتيل... وقصة حياة خالد القذرة تتنشر في كل مكان... ومش بعيد كمان مهران العيسوي تطوله الحدوتة وتبقى كده نضفت إيدك من كل ده... وإذا حاول أحمد علام إنه يتعدى حدوده أو يدور في الدفاتر الممنوعة... تخدره وتخطفه... بالمناسبة ياريت يكون بخير عشان لو حصلّه حاجة هتبقى جريـ...

إلا أني لم استطع إكمال جملتي.

ببساطة لأن باطن المسدس كان يلاكم وجهي في معركة هزمت فيها بالضربة القاضية.

وأظلم العالم من حولي مع مذاق الدم بين شفتي.

* * *

قبل الذروة بساعة

أضواء خافتة تأتي من لا مكان.

وطعم الدم اللاذع في فمي.

ولساني يدور في فمي ليجد سنة قد ذهبت في مكان ما.

أفتح عيني ببطء... أتحسس يدي لأجدهما حرتين بلا قيود.

لا أصوات.

لا بشر.

لا أثاث.

لا نوافذ.



فقط حوائط وأضواء صفراء خافتة تأتي من أطراف القاعة التي أرقد فيها.

وأمامي ألمح في الإضاءة الباهتة براويز كبيرة تشبه الأبواب.

أو ربما تكون أبوابًا.

صوت يأتي من لا مكان.

- صح النوم يا أكرم.

أنهض محاولا فك عضلاتي المتيبسة وعظامي المتحجرة...

- أنا فين؟

- إنت في شارع ٩ زي ما طلبت مني... شارع ٩... تاسع شارع شمال... تاسع بيت على اليمين... قاعد في قاعة فيها تسع أبواب.

- إنت اتجننت خلاص صح... زمان الدنيا كلها مقلوبة عليك برة وانت قاعد بتلعب.

الصوت يتوقف... وأنا أرفع صوتي مناديًا على أي من يمكنه سماعي.

- ما تحاولش تعلي صوتك... الحيطان دي متغلفة بعازل صوت من نوع قوي أوي... كنت بقعد مكانك هنا واتمرن على ضرب النار وانا بتخيل الحيوان اللي مات وهو قدامي... واقعد أصرخ وأصرخ لحد ما عروقي تنفجر من الغل.

أجوب الحجرة محاولا أن أجد مصدر الصوت... أن أجد بابا أو نافذة مخبأة.

لا شيء.

- فين دكتور علام؟



- في الحفظ والصون طبعا... هو وإيرين وسمر... جنبك هنا.

صوت قداحة تشعل سيجارة... وأنفاسه وهو ينفث السيجارة.

- وبمناسبة إنك جبت سيرتهم... عايزين نتكلم في موضوع مهم.

- موضوع إيه؟

- عايز ألعب معاك لعبة.

أطلقت ضحكة عالية مجلجلة... أخرجت فيها كل توتري وغضبي وسخطي.

- ودي بقى نقشتها من فيلم «سو» ولا من فيلم هندي؟

- بتحاول تبقى متماسك وبتضحك... وماله... أنا أحب الراجل المتماسك.

- ويا ترى لعبة إيه دي؟

أجوب القاعة كنمر حبيس... الأبواب حفرت عليها أرقام من ١ إلى ٩ وبجوار كل باب قفل إلكتروني يفتح بأرقام.

- زي ما انت لاحظت عندك تسع أبواب... ورا واحد من الأبواب دي الدكتور علام وسمر وإيرين... وهنلعب مع بعض لعبة تجربة وخطأ بسيطة جدا.

صوت إشعال سيجارة أخرى... حتى إن خاطرًا سخيفًا جاب عقلي بأن هذا المجنون سيموت بالسرطان قريبًا.

- اللعبة قواعدها سهلة... تجاوب صح وتختار الباب الصح... تلاقيهم كلهم هناك كويسين وزي الفل... متخدرين آه بس كويسين... وساعتها هكلم الإسعاف وهفتح باب الفيلا وأسيبهم يدخلوا واختفي أنا خالص... أظن كده Fair enough.

ثم نفث دخان سيجارته وصمت.



ـ ولو الإجابة كانت غلط؟

ـ كل إجابة غلط فيها حياة واحد من التلاتة... والإجابة الرابعة فيها حياتك انت يا عبقري... بالمناسبة انت بصيت في كل حتة... إلا فوق دماغك.

رفعت رأسي لأجد شبكة متداخلة لا يظهر لونها من خفوت الإضاءة... شيء يبدو كالمواسير.

ـ الشبكة دي عبارة عن عبوات حمض هيدروفلوريك... نفس الطريقة اللي استخدمها الكلب بتاع الكيماوي كذا مرة.

ـ وانت بتستخدمها ليه طالما هو كان كلب؟

ـ ببساطة لأني كلب زيه.

ثم أطلق ضحكة عالية مجلجلة تفوح من بين نغماتها روائح اللوثة.

ـ أنا مش هلعب اللعبة دي.

ـ للأسف يا أكرم... مفيش اختيارات هنا... إنت هتلعب اللعبة دي بمزاجك أو غصب عنك... فرصتك الوحيدة عشان تعيش واللي ورا الأبواب دول يعيشوا هي إنك تلعبها معايا... إنت مشيت ورايا في رحلة طويلة عشان تصطادني... ما ترجعش تلوم على الأسد لما ياكل رقبة صياده.

أقترب من الأبواب... هذا عمل ليس بالهين... ليس وليد يوم أو لحظة أو شهر... هذا الوغد كان يخطط لهذا من زمن... ولكن لم؟

وكأنما قرأ أفكاري قال...

ـ أنا بقالي سنين برتب للحظة دي... لحظة أحط فيها خالد عوض هنا في القاعة دي... وأحط كل أهله وحبايبه ورا الأبواب عشان أعرف انتقم لدم أبويا... للأسف لما لقيته ما لقتلوش لا أهل ولا حبايب...



كان كلب ووسخ وأقذر من صفيحة زبالة... كان يستاهل الموتة اللي ماتها بالظبط... كان كل شيء هيمر بشكل عظيم لولا إني غلطت وما عملتش حسابك إنت ومستر هولمز.

أقترب من أحد الأبواب وأحاول استخدام مهاراتي في النجارة في إيجاد نقطة ضعف.

بينما أمير الانتقام يكمل محاضرته...

- كنت عايز أجوّد وأقفل الموضوع بكل حرفنة... ومين أحسن من دكتور علام قديس الطب الشرعي عشان يطلعلنا تقرير متلخبط يخر مية من كل حتة وتتقيد ضد مجهول... وصحفي عطشان يرجع للأضواء يدعبس ورا تاريخ الوسخ لحد ما يفضحه للناس ويبقى الضحية هو الجاني... كنت بدأت أسمع صوت ضحكة أبويا في ودني وأنا بنفذها... لولا إنك بوظت كل حاجة إنت ودكتور علام بتاعك... بذكائكم بقى... بالحظ... بوظتم كل حاجة.

- فقررت تكمل انتقامك فيا؟

- يرضيك يعني المجهود ده يضيع بلاش كده؟

- لا إزاي؟

- ببساطة دوّرتلك على أهل ومعارف انت كمان ما لقتش غير فريق المهمة المستحيلة بتاعكم... فا قولت وليه لأ... ارتجالة بسيطة مش هتضر... وهتبقى برضه نهاية لطيفة لحياتكم الملخبطة المهرجلة انت وهم... نهاية فعلا تحسسني بقيمة اللي كنت بخططله من زمان.

لا نقاط ضعف... باب مصمت مدعم بالفولاذ وقفل إلكتروني...

- إنت ما بتشتغلش لوحدك طبعًا.

- الناس ما بتبطلش جري ورا الفلوس طول عمرها يا كيمو... وطالما



اتوجدت الفلوس اتوجد اللي ممكن يخطف أبوه عشانها... مش بس راجل عجوز معدي الستين وبنتين.

أدور أمام الأبواب كفأر تجارب يبحث عن مخرج المتاهة.

- ودلوقتي هسيبك كده تروق وتصفي ذهنك وتستعد... اللعبة دي لعبة حياة أو موت ومحتاجة ذكاءك كله يا عبقري... وانا بقى ألحق أعمل الفشار وآجي أتفرج.

* * *

قبل الذروة بربع ساعة

أنا الآن أقف في وسط ذلك المكان.

لا أصدق أنني في فيلا تقع في نهاية شارع ٩... في الشارع التاسع إلى اليسار... أمامي تسعة أبواب... باب واحد فقط سوف يمنحني حريتي وحرية المساكين الثلاثة المحتجزين، وأنا واقف تحت نظام يرش حمض الهيدروفلوريك المركز، إذا كان اختياري صحيحًا.

وحياتي وحياة المحبوسين ستضيع هباء إذا كان اختياري خاطئا.

لقد اخترت الفريسة الخاطئة بلا شك يا أكرم، أي فيلم رخيص وقعت فيه... أي عقل مسطح مريض صنع هذه الأحجية السخيفة كي يحول الأمر إلى لعبة تهدد حياة ثلاثة أبرياء، بل وحياتي أنا شخصيًا.

- قدامك ٩ دقايق يا أكرم تحل فيها الأسئلة عشان توصل للباب الصح... الباب اللي هيخرجك انت واللي عندي بخير... وخلي بالك الإجابة الغلط هتغير رقم الباب وهتخلص على واحد من الغلابة اللي عندي.

- بطل بقى أسلوب أفلام الرعب الرخيص ده وسيبني أركز... عشان تلاقي فيّ حيل عالأقل أخلص عليك بعد ما أخرج من هنا.



الصوت يأتيني من مكبرات صوت تنتشر في كل مكان حولي... وضحكة مجلجلة أكاد أتخيلها حطمت القناع الجبسي الصارم الذي يرتديه هذا المجنون.

(الحياة... النار... الضوء... الأرض... الهواء... الماء... الظلام... الطاقة)

هذه هي العناصر الثمانية حسب مقالة المتوفى وحسب ألغاز الباشا السابق.

ـ السؤال الأول.

قالها بطريقة مذيعة لطخت وجهها الأصباغ في قناة محلية لا يشاهدها أحد.

ـ قال أبو نواس.. وداوني بالتي كانت هي الداء... رقم الباب هو مربع عدد العناصر المعكوسة مقسوم على عددها... يلا يا بطل... كيمو كيمو.

ضحكاته ترن في وسط كلماته من مكبرات الصوت... فأغمض عيني مجريًا العملية الحسابية في رأسي.

الضوء والظلام... الماء والنار...

أربعة عناصر... مربعها ستة عشر... مقسوما على أربعة... إذن الباب رقم أربعة هو الحل.

ـ ست دقائق.

أفتح عيني وأذهب ناحية الباب الرابع... صوته صمت وكف عن تقليد صوت تكات الساعة...

لكن عقلي قال لي إنه ليس هذا الباب، لا يمكن أن تكون الإجابة بهذه البساطة.



ـ وقفت ليه يا كيمو... ما تكمل.

أفتح عيني من جديد وانظر إلى الرقم أربعة المحفور فوق الباب... لا، من غير الممكن أن تكون الإجابة بسيطة هكذا... وإلا ما فائدة كل هذا؟

الضوء والظلام معكوسان بلا شك... والماء والنار كذلك... لكن ماذا عن الأرض والحياة؟

الأرض هي منبت الحياة في كل الحضارات، لكنها أيضا منتهاها في كل الحضارات، الأرض مقر إنهاء الحياة.

هناك دفنت أبي وأمي وولاء وربما أدفن علام وسمر وإيرين قريبًا.

ـ ثلاث دقائق.

وراح يدندن لحن أغنية لمطرب شعبي شهير... أغمض عيني محاولا التركيز من جديد.

ستة عناصر... مربعها ستة وثلاثون مقسومًا على عددها... إذن الناتج هو الباب السادس.

أغير اتجاهي إلى الباب السادس... أفتح عيني وأمشي إليه في تصميم.

ـ ارجع يا كيمو بدل ما تندم.

صوته يأتي من خلفية عقلي فأسمعه خائفًا مذعورا... لا بد أن يعرف أنه يعبث مع الشخص الخطأ.

ـ افتكر إني حذرتك وانك انت اللي اخترت.

أتقدم ناحية الباب... أقف أمامه وأمد يدي إلى لوحة المفاتيح...

ـ كود فتح الباب ده كام؟



- بقولك هتندم.

- كود فتح الباب ده كاااام.

قولتها صارخًا بحزم وبأعلى ما أوتيت من صوت في حنجرتي.

- أربع ستات يا أكرم... أربع ستات.

أيقولها بيأس وخيبة أمل أم أنني أصنع لنفسي حافزًا إيجابيًا لأمضي قدمًا.

ضربت الأرقام ومددت يدي أفتح الباب.

فقط لأجد حائطًا من الإسمنت.

وضحكاته المجلجلة تدوي في قلب المكان... ضحكات فقد صاحبها عقله تماما وغيب عن عالمنا.

- كنت عارف إنك هتتفذلك وهتعمل فيها هولمز زمانك... عقلك المتعالي وغرورك هيصورلك إني عايز أتوهك، وإنك عشان تنتصر عليّ لازم تفكر بطريقتك المعقدة المعقربة مع إن الحل أبسط ما يكون.

- رقم أربعة.

- بينجو.

ثم انطلقت ضحكاته من جديد ترتفع في المكان... لو أن عازل الصوت لا يعمل جيدا لكانت القاهرة بأكملها هنا من صوت ضحكاته.

رحت أضرب الأبواب بقدمي في جنون وأنا أسبه بأقذع ما تعلمته من شتائم.

- عارف لو كان الدكتور علام الله يرحمه شايفك... كان زمانه قرف منك أوي.



ـ الله إيه؟

ـ إنت فاكرني بهرج يا أكرم... الدكتور علام الله يرحمه يا حبيبي... الراجل كان رجل برة ورجل جوة كده كده... والسرطان كان بدأ ياكل في رئته خلاص... كل اللي عملته إني ريحته وسهلت رحلته.

واصلت شتائمي وارتفع صوتي بالصراخ وآلمتني قدماي من ضرب الأبواب بها، حتى كدت أكسر أصابعي العارية... ثم انهرت على ركبتي.

ـ برافو... اهدى كده وخليك ولد شاطر... يلا قدامك فرصتين كمان... لأ تلات فرص... وعشان كده إليك السؤال الثاني.

ثم أحدث صوتًا شبيهًا بصوت بدء رسائل الاستدعاء في مترو الأنفاق... مبتذل وسفيه حتى وهو ينتقم... ينتقم ممن حاولوا أن يساعدوه.

ـ قال المتنبي... ما كل ما يتمنى المرء يدركه... تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن... بماذا تجري السفن... عدد العناصر هو رقم الباب يا كيمو... أمامك تسع دقائق يا سيد أكرم.

قالها هازئا ساخرًا متعاليا.

لن أدعها تمر هذه المرة أيها الحقير.

بالطبع الإجابة ليست سهلة هذه المرة... لن تكون بسيطة كأول سؤال... ستظن أني سأفكر في أبسط إجابة كي أجاري عقلك المريض... لكنك ستضع إجابة متخفية هذه المرة.

تجري السفن بالهواء... وبتيار الماء... وبالطاقة... وبالحياة في الإنسان.

إنه الباب الرابع من جديد.



- سبع دقائق.

أتقدم مغمضًا عيني نحو الباب الرابع... صورة المرحوم دكتور علام تتشكل أمام عيني... نظرته اللائمة وعيناه الرماديتان تحدقان فيّ.

- كنت أستحق موتة أفضل يا أكرم.

- كنت تستحق الحياة وأنا أستحق الموت.

- الله غالب... بس برضه كنت أستحق موتة أفضل.

- كل لعبة وليها عواقبها يا دكتور.

- وأنا لعبتها معاك وأنا متحمل عواقبها... بس البنات دي مالهمش ذنب.

- هم كمان لعبوها ورضيوا بقواعدها.

- طب افتح عينك كويس... افتح عينك كويس قبل ما تشيل ذنب تاني.

أفتح عيني وأنا أمام الباب الرابع... أظر إلى مكبرات الصوت وعلى وجهي تلك النظرة التي أعرفها دون أن أراها.

ثم أتمشى ببطء نحو الباب الثالث... أضرب بأصابعي فوق الأزرار بثلاثة ثلاثات... ثم أمد يدي وأفتح الباب.

وخلف الباب أجد فتاتين أحكم وثاقهما نائمتين فوق فراشين معدنيين.

- إزاي؟

- إزاي إيه؟

- إزاي عرفت؟

- عرفت الباب الصح ولا إنك بتخدعني من البداية، وإن أول سؤال بإجاباته كلها كانت غلط... وإنك كده كده كنت هتقتل الدكتور علام؟



- الاتنين.

- تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن... تبقى العناصر ثلاثة... الماء والطاقة والحياة يا باسل باشا... بالنسبة لقتل الدكتور علام... إنت عارف الإجابة كويس.

أتقدم ناحية الفتاتين... نائمتان كالملائكة... أحل الوثاق وأنا أرفع صوتي.

- ما تنساش قبل ما تمشي تطلب الإسعاف زي ما اتفقنا.

وعندما تحركت قدماي وأنا أتقدم... ضربت في طريقها شيئًا قابعًا هناك تحت الأسرة المعدنية.

نزلت على ركبتي أقترب من الشيء... وما إن اقتربت حتى وجدت أمامي وجهًا عجوزًا متغضنًا شوه الحمض فمه ورقبته وأذاب نصف شعره.

وجها لرجل كان يدعى أحمد علام.

ورحت أصرخ...

وأصرخ...

أصرخ مقتلعًا صوتي من حنجرتي.

أصرخ ضاربًا برأسي الحائط.

أصرخ حتى أظلمت الدنيا.

الظلام... الحقيقة

ثم لا شيء...





(إن رحلة البحث عن العنصر التاسع رحلة طويلة ومحفوفة بكل أنواع المخاطر، إلا أنها تستحق المضي قدمًا بها، فالحياة بلا هدف هي حياة بلا معنى، والحياة بلا خطر هي حياة بلا طعم أو لون أو رائحة.

فقط عليك أن تعرف أن هناك مخاطر، وأنك لا بد أن تواجهها، وأن هناك نتائج وأضرار لا بد أن تتحملها، فلا تقل ساعتها إنني لم أنبهك.

واعلم أنه كما قال الخالد أبدا تايلر دوردن «لكي تصنع عجة جيدة... لا بد أن تكسر بعض البيض»)

خالد عوض

مدون مصري

* * *

- إنت ليه عايز تضحي بالفيل؟

* * *

الفصل الرابع: البداية

قبل البداية بتسع سنوات

يبدو أنه العام ٢٠٠٦ أو ٢٠٠٧... أو ربما هو بينهما... نهاية عام وبداية عام آخر.. لا أحد يعرف تحديدًا.

يجلس اللواء محسن عبد القادر داخل سيارة دفع رباعي زرقاء بلون سماء بحار الظلمات... يدخن سيجارته التسعين في تلك الليلة الظلماء... على بعد أمتار قليلة منه تتراص سيقان وأذرع اكتست بالسواد من قمة رأسها حتى أطراف أصابعها... تتصل بقامات ممشوقة وتحمل بين أكفها أسلحة صغيرة قادرة على هدم بناية كاملة وإفناء من فيها... جهاز اللاسلكي الصغير ينام متوترًا فوق تابلوه السيارة بينه وبين السائق حاد النظرات متصلب العينين... حتى إن الجفنين يبدوان وكأنهما خُيِّطا إلى جبهته فلا يرمشان ولا يطرفان.

صوت متوتر آخر اختلط بالكهرباء الاستاتيكية يخرج من قلب جهاز اللاسلكي.

- ألو... قيادة.

- ابدأ الإشارة.

قالها بصوت عميق متحشرج مختلط بدخان تبغ مستورد يخرج من فتحات أنفه كتنين رابض.

- الهدف بدأ التحرك من الباب الخلفي.

- حدد العدد والتجهيزات.

- تَمَن أفراد مسلحين بسلاح خفيف وعربية نص نقل دوبل كابينة.

- على بركة الله... ابدأ الهجوم.

ثم وضع الجهاز في مرقده من جديد وهو يشعل سيجارة أخرى...



دخان جديد يضاف إلى حويصلاته المتشبعة... القامات السوداء تتحرك مكونة دائرة تضيق حول حدود ذلك القصر المهجور... اليوم يجني حصاد أعوام من البحث والتنقيب عن تلك الخلية... هؤلاء الزبانية قتلوا من رجاله الكثير في عمليات تفجير وتسميم... هو يذكر تلك العملية الأخيرة حينما احتجزوا ستة من رجاله في غرفة سدت منافذ تهويتها ثم أطلقوا عليهم غاز السارين... اللعنة عليهم وعلى من شاكلهم... غاز السارين في القرن الحادي والعشرين! أي عقلية نازية أنجبت هؤلاء!

راحت أجهزة بث الذكريات تتلاعب بعقله... هو يتذكر شريط الفيديو الذي أرسلوه لهم في الداخلية منذ شهور... يذكر صور ضباطه والرغاوي تتصاعد كالحمم من أفواههم وأنوفهم... تسميم بالغاز... قتل بالسم... صدمات عصبية من رش الأحماض.

لكن كل هذا على وشك الانتهاء... تنظيم الكيماوي سوف يسقط الآن وللأبد.

الأجهزة تبث ذكرى جديدة... عينا باسل... مراهق في بدايات بلوغه تتناثر البثور على منبت شاربه... وأنفه الملكي الحاد الذي ورثه عن أمه... وابتسامته الخبيثة... ابتسامة جعلته يعرف أن باسل بخير وأنه سيظل بخير.

- والمعاد إمتى يا محسن؟

- وانتي من إمتى بتسأليني الأسئلة دي يا فهيمة؟

- قلقانة عليك وقلبي مقبوض.

ينظر لها بطرف عينه والسيجارة المشتعلة تتدلى من طرف فمه... فهيمة زوجة مثالية... لا تتدخل فيما لا يعنيها... ظلت مخلصة لمهمتها الأصيلة كخادمة وطباخة وحارسة منزل وحاوية لطفليه طوال ثلاثة وعشرين عامًا... لم تتبرم عندما تأخرا في الإنجاب، ولم تطلب



منه أن يذهب إلى طبيب... تحملت كل شيء وأي شيء.

إلا أنها اليوم تنطق متسائلة للمرة الأولى.

ـ إن شاء الله قريب هنخلص من الهم ده.

ـ وساعتها الناس كلها هتعرف إنك انت اللي خلصت البلد من شرهم.

ـ الناس أساسًا ما تعرفش عنهم حاجة يا فهيمة، ولا هتعرف عنهم حاجة... إنتي عايزة البلد تضيع مننا لما الناس تعرف إن فيه تنظيم بيقتل في ظباط الداخلية وبيخطفهم من وسط عيالهم؟ دي تبقى فوضى يا فهيمة، فوضى.

تومئ برأسها موافقة ونظرات البلاهة والانبهار التي تجيد رسمها على مقلتيها الواسعتين... مقلتان ورثتهما عن أبيها العمدة المنحدر من أصول تركية... وبشرتها البيضاء التي منحتها لها أمها فلاحة المنصورة المثابرة... فلم تتوان أن تمنحهما لابنتها البكر... ابنتها التي خطفها زوجها من حضنها وسافر بها إلى بلاد الغرب مبتعدا عن سيطرة حماه اللواء.

شريط الذكريات ينقطع مع فاصل إعلاني من طلقات الرصاص المتبادلة... صرخات هنا وهناك، وساحة معركة تتحول إلى فوضى عارمة... دواب وديدان الأرض التي استيقظت مفزوعة من تحول هذه المنطقة الزراعية النائية إلى ساحة قتال... والسائق لا يزال جفناه صامدين!

ـ دوّر واطلع حالا.

ـ يا فندم وجودك هناك خطر... وخطة التأمين بتقول...

ـ ملعون أبو خطة التأمين... دوّر واتحرك في اتجاه الهدف فورًا.

المحرك يدور مُصدرًا صوته المرتفع... والعجلات الأربع تندفع معا بأوامر ناقل السرعة الخاص لتدور خلف القصر الكبير.



صوت الطلقات يرتفع... وصاروخ صغير يعبر أمام السيارة مصيبا تجمعًا مسالمًا من الأشجار القابعة هناك.

ـ استمر في التحرك.

ـ يا فندم...

ـ استمر في التحرك.

السائق يراوغ ارتفاعات ومنخفضات هنا وهناك... صوت الطلقات يرتفع وسيادة اللواء يخرج طبنجته الميري من غمدها.

ـ اقف هنا.

فرملة تثبت السيارة القوية في مكانها، بينما يهبط اللواء محسن من السيارة في رشاقة تليق بشاب في العشرينات... رشاقة لم تمنعها سنوات عمره الخمسون ولا أكل فهيمة المشبّع بالسمن البلدي،

ولا سيجارته التسعون التي أطفأها منذ قليل.

يحتمي بجسد السيارة وجهاز اللاسلكي المتوتر في يده اليسرى ينتظر الإشارة...

ـ عمليات، عمليات.

ببطء وبصوته المتحشرج... ينادي فيجيبه فراغ من الأثير.

يرفع رأسه وعيناه تضيقان محدقتان بنقطة فوق سطح القصر... نقطة لن تلاحظها سوى عينيه هو، وهو فقط.

ـ عمليات، عمليات.

ـ ألو قيادة... ابدأ الإشارة.

ـ زاوية ٦٠ فوق السطح... القناصة تتعامل فورًا.

ـ علم وينفذ.



ثم رفع مسدسه وصوب إلى تلك النقطة... بضع طلقات للإلهاء فقط... هو يعرف أن مسدسه ليس كمسدسات الأفلام تقدر على إصابة هدف من مسافة كهذه... هو فقط يريد الإلهاء.

- ألو قيادة... تم التعامل مع النقطة.

- ابدأ الهجوم المباشر فورًا.

ثم رفع رأسه... ونظر إلى السائق نظرة يعرفها الأخير جيدا... رآها في أعين الكثيرين قبله... منهم من عاد لتختفي من على وجهه ومنهم من لم يعد.

لكنه رآها.

ورأى معها إشارة يده وهو يأمره بالعودة إلى حيث جاء.

يتحرك محسن شاهرًا مسدسه وخطواته ثقيلة... أصوات صرخات وطلقات نار ترسم حوله موسيقى تصويرية رافعة الأدرينالين إلى مستواه الأعلى... يقتحم القصر من الباب الأمامي مطلقًا وابلا من رصاصات مسدسه.

ساعة كاملة تم فيها كل شيء... طلقات وصرخات ودماء واقتحام وقتلى هنا وهناك.

ساعة كاملة وقف بعدها على أرضية مكسوة بسجاد مهترئ... تنام فوقها ثمان جثث مغطاة ببقايا ثياب وأوراق جرائد.

قاعة استقبال تليق بقصر قديم يعود إلى أيام أسرة محمد علي... بنيت في أطرافها خمسة عمدان خشبية أو جبسية... لا يهتم بالطرز المعمارية أو مواد البناء... وسقفها تغطيه شبكة من المواسير المطلية بلون أحمر قانٍ... مواسير إطفاء حريق كما تبدو.

جهاز اللاسلكي يقبع من جديد في يده اليسرى بينما يتدلى



المسدس الميري بجواره... فوهته مرهقة من كثرة ما اخترقها من رصاصات... وعيناه تجوبان الجثث الثماني.

- ألو قيادة...

- عمليات ابدأ الإشارة.

- تم تمشيط المكان بالكامل يا فندم ومفيش حد غير التمانية دول.

- ارجع لنقطة التجمع... انتهى.

- فاضل بس يا فندم باب البدروم...

- افتحه بحرص يا سيادة المقدم واجمع في نقطة التجمع... انتهى.

عيناه تجوبان المكان بحثًا عن خدعة... هناك شيء ما في الأمر ليس منطقيًا... وكر التنظيم الكيماوي الرئيسي يسقط هكذا بأبسط مقاومة... لقد رأى تجار سلاح وتجار مخدرات يقاومون أكثر من ذلك... ثمانية أفراد منهم قناص واحد ومطلق صواريخ... ثمانية نوابغ في الكيمياء وصنع المتفجرات يحمون وكرهم بقناص وقاذفة آر بي جي محمولة!

هناك قطعة ناقصة في هذه اللوحة.

اقترب من لوحة كبيرة معلقة على الحائط... رسمت ببرنامج رسم هندسي... لوحة تظهر ما يشبه قطاعًا لمبنى من ثلاثة طوابق... يرى أبوابًا ونوافذ من الطابق الثاني إلى الأول إلى الأرضي، ثم بابًا رسم عليه سهم أحمر قانٍ بخط اليد ينزل إلى القبو، وعلامة (X) حمراء قد وضعت عليه.

ماذا يعني هذا؟

عقله يعمل بسرعة كبيرة محاولا فهم ما يحدث... عقله لم يستوعب أن صوت إنذار حريق انطلق في أرجاء المكان، وأن هناك خمسة أعمدة



تشتعل ذاتيا من الأرض إلى السقف... وأن خيطًا مشتعلا يربط العمدان الخمسة من الأرض ويتصاعد كأنه دائرة نار.

ـ عمليات، عمليات.

الأثير فقط يجيب.

كل من معه ينطلق باحثًا عن طفاية حريق أو يحاول الفرار من بين دائرة النار المحكمة.

فوضى عارمة.

ـ عمليات، عمليات.

الأثير الصامت فقط يجيب والنار تتصاعد إلى السقف.

عيناه تنظران إلى السقف... شبكة مواسير إطفاء حمراء تتقاطع وتتعامد في السقف هناك.

صوت الإنذار يدوي، والجميع يتحركون في اتجاهات عشوائية متفادين الأعمدة المحيطة بهم.

هذا فخ محكم يا محسن... الأوغاد يحرقونكم أحياء.

وفي لحظة وصلت حرارة النيران إلى رشاشات الإطفاء، فانفجر الزئبق الذي يمنع الماء في الأنبوب الصغير.

وانطلق سائل عديم اللون والرائحة من الرشاشات يندفع ناحية العمدان وناحية من يقفون بجوارها.

وانطلقت معه الصرخات كأنها من الجحيم.

وبينما تصيبه القطرات المرشوشة بعنف فتأكل ملابسه وتصيب لحمه وعظامه، عرف محسن أنه وقع في فخ محكم.

وأن رجاله يتساقطون مرقعين بنقاط الحمض فيركضون إلى الأعمدة



المشتعلة لتمسك النيران بهم.

محترق بالنار أو محترق بالحمض.

بينما عقله يأمر جسده أن يستسلم...

لقد انتهى الأمر.

وكان آخر ما رآه السائق بعد نظرة اللواء محسن، قصر يشتعل في خلفية من صرخات كأنها من الجحيم.

ثم جاء الانفجار...

وبدأ كل شيء من هنا...

* * *

قبل البداية بأربع سنوات

- إنت ما بتسيبش الملف ده من إيدك أبدا؟

- الملف ده أنا اللي شايله مش انت... يبقى مضايقك في إيه؟

زفرت كاتمة غضبها... فنظر لها نظرة جامدة خالية من أي مشاعر... لا غضب ولا حزن ولا حتى سخط.

اعتادت عليه كما هو... صلب الملامح حاد النظرات... ظنت أنهم يطعمونهم شيئًا مع الطعام المعتاد في كلية الشرطة كي يحولوهم إلى قوالب من الطوب الإسمنتي لا تشعر بشيء... لكن عندما رأت صديق صديقتها وهو يتراقص معها منذ أسابيع في أحد الملاهي الليلية، عرفت أن باسل فقط هو من يبدو كذلك.

تعرفه الآن منذ ستة أشهر ولم تره من دون هذا الملف... يأتي في موعده بالدقيقة... يجلس إلى نفس الطاولة التي دائما ما تكون خاوية ـ أو ربما هو من يأمر أن تكون كذلك ـ يواجه الواجهة الزجاجية بوجهه الذي تغطيه نظارة شمسية أنيقة... يحمل في يده ملفًا أسود



ممتلئًا بأوراق لم تستطع يومًا أن ترى محتواها.

تأتي هي متأخرة دائمًا... تنهي محاضراتها في الجامعة مبكرة، وتتجول بين الكليات لتحادث صديقاتها متبادلة معهم أحاديث النميمة وحوارات الارتباط وفك الارتباط... لا بد أن خطوبة ما جرت أحداثها هنا أو هنا، وتحتاج إلى استديو تحليلي مع إحدى صديقاتها حتى يأتي موعد لقاء باسل.

تجمع أغراضها المتناثرة على طاولة إحدى الكافتيريات في الجامعة... وتستقل التاكسي لتصل كالعادة متأخرة بنصف ساعة.

لم يتبرم يوما من تأخرها... قالت لنفسها إنه ربما يعاملها كأنثى أصيلة لا تلتزم بموعد... وهذا جعلها ترتاح... ثم إنه لا يجلس في قارعة الطريق حتى تشعر بذنب التأخر عليه.

ضابط شرطة في مقتبل عمره... يعمل في جهة ما في وزارة الداخلية لا تعرف عنها شيئا... وسيم كتماثيل اليونان المرمرية، وممشوق القوام مثل عدائي ألعاب القوى... اللعبة التي لا يعشقها من بني جنسها إلا هي... أو هكذا تظن.

تجلس أمامه فيخلع نظارته الشمسية ويبتسم نصف ابتسامة... ثم يومئ برأسه نصف إيماءة لنادل ما يتسكع في المقهى الفاخر... فيأتي مهرولا ليرى ما يريده الباشا وصديقته المحجبة صاحبة الحقيبة الكبيرة.

يأتي بمشروبين أحدهما القهوة... يضعهما في صمت ويكمل ما كان يفعله قبل أن يأتيه الاستدعاء.

دائمًا ما تبدأ هي بالكلام... ودائمًا ما تتحدث عن الملف.

فضول القط لا شيء أمام فضول امرأة مثلها.

- إحنا بقالنا كذا شهر نعرف بعض، وعمرك ما قولتلي الملف ده فيه



إيه.

- إنتي ما بتزهقيش؟ وبعدين طالما بقالنا كذا شهر بتسأليني وما بجاوبش يبقى المفروض منطقيا ما تسألنيش تاني.

- ويا ترى بقى لما نتجوز هتفضل برضه مخبيه عني كده؟

ثبتت نظراتها نحو عينيه العميقتين بعد ذكرها أمر الزواج... لعبة قديمة علمتها إياها صديقتها الصدوق... إذا رمش بعينيه فهو لا يفكر في ذلك ولا يريده... إذا حك أنفه فهو يفكر في وسيلة للهروب... إذا صمت فقد ألجمته الصدمة... إذا...

- لما نتجوز هيكون فقد لازمته يا سمر...

- الله يبشرك بالخير يا سيدي.

* * *

كيف عرفت سمر... لا أدري... ربما هي من عرفتني.

* * *

قبل البداية بسنة

أجلس واضعًا ساقًا فوق ساق... أخبئ عيني في شاشة هاتف محمول شُرخت من نصفها... لا أملك مالاً كي أصلحها أو أبدل بها هي والهاتف آخر جديدًا.

لا أملك مالاً لأني لا أملك عملاً حقيقيًا يدر دخلاً... أجلس في المنزل لأكتب مقالات بالقطعة لصحف لا يقرأها أحد... أتقاضى مقابلها جنيهات قليلة لا تكفي أكلاً وشربًا وعلاجًا لزوجة مصابة بسرطان الثدي في مراحله المتقدمة.

زوجة وافقت أن تتزوجني في شقة قديمة متهالكة في القلعة... فوق فراش خشبي كان لأبي وأمي من ثلاثين عامًا... ترتدي حول إصبع



يديها اليسرى خاتمًا ذهبيًا عيار ١٨ بلا أي خواتم أخرى أو سلاسل تزين رقبتها.

أجلس وأدفن قلقي الذي يعصف بأحشائي الخاوية، وأسكن ألمي بنظرات إلى شرخ في شاشة الهاتف، لأقرأ كلامًا لا أفهمه ولا أستوعب منه حرفًا.

بالأمس بعت سيارتي القديمة المتهالكة، وجهازًا كان يبث صورة نتسلى عليها في الليالي الصيفية الحارة... واليوم سوف أبيع شيئًا جديدًا كي أجد ما يكفي لحقنة كيماوية مقبلة.

ـ بس كده سعر العلاج ارتفع أوي يا آنسة.

ـ وأنا اعمل إيه يا أستاذ... كل حاجة في البلد بتغلا... مش عايز الشركة اللي بتورد الكيماوي كمان تعلي السعر.

ـ والناس تعمل إيه لو معهاش فلوس... تولع في نفسها وتخلص... هو مهران العيسوي ناقص غنى فاحش عشان يغتني تاني؟

مهران العيسوي... وحش التحاليل الطبية الذي قرر في أحد الأيام أن تجارة الدواء والعقاقير الطبية مجال لم تلجه قدماه ذواتا الحذاء الإيطالي البراق... فقرر أن يتحرك مسرعًا قبل فوات الأوان ليصل إلى القمة في سنوات قليلة.

والآن هو رقم واحد... بل ربما كان رقم صفر الذي تأتي من بعده كل الأرقام!

ـ أستاذ أكرم فهمي.

ينادون على اسمي... ينادون من جديد... فتأتي أصواتهم مختلطة بأصوات سعالي الخارج من صدر أفسده التبغ المحلي الرخيص ـ الذي لم يعد رخيصًا ـ أسعل مرة أخرى، وأتجه ناحية الممرض الذي ينفخ رائحة البصل من فمه من أثر وجبة إفطار قريبة.



ـ حضرتك وقّعلي هنا لو سمحت.

ـ على إيه؟

ـ دي موافقة حضرتك الكتابية على جرعات العلاج الكيماوي للمدام.

ـ دي حاجة جديدة بتخترعوها مثلا؟ هي داخلة تعمل عملية عشان أوقع على موافقة كتابية؟

ـ والله دي الإجراءات الجديدة... حضرتك اتفضل راجع الإدارة وخلي المدام تستنى لحد ما توصل معاهم لحل.

ينظر لي شذرًا فأنظر له شذرًا... نتبادل حرب النظرات وأنا أقطعها عليه قارئًا كلمة أو كلمتين في الورقة التي منحني إياها، بينما أعود لأنظر إليه من جديد.

ـ ها يا بيه... هتمضي ولا تراجع الإدارة؟

أتناول القلم من يده وأوقع بحروف اسمي تحت خانة (الوكيل/ الأب/ الزوج) أيًا كانت المسميات.

أوقع وقد انتزعت من وعيي أحاسيس من الريبة والشك والخوف؛ فهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟

* * *

بعد البداية بخمسة أشهر

اليوم الأول... من الشهر الأول... من السنة الأولى... من القرن الأول.

باسل بدأ العد في موقعه الجديد... بدأ يخط في ورقة صغيرة تاريخ يومه الأول كمعاون مباحث قسم المعادي.

يجلس خلف مكتب خشبي قديم في غرفة تلونت حوائطها بلون كريمي متسخ... أمامه نافذة زجاجية شرخت من منتصفها تغطي نصفها



ستارة بنية.

يجلس على المقعد فيسمع صوتًا ما في مفاصل المقعد... صوتًا خافتًا لكنه كاف كي يسمعه

كصوت دقات أمين الشرطة عبد الباقي على الباب.

- ادخل يا عبد الباقي.

يدخل عبد الباقي بهيئته الشبيهة بعبد الوارث عسر... وسنوات عمره التي قاربت على الستين.

يؤدي تحية خفيفة هي بين السلام والتقديم... ويقترب من المكتب.

- حضرتك تؤمر بحاجة يا باسل باشا؟

- شوفلي الجماعة بتوع المخازن يجيبولنا كرسي بدل ده.

- ولاد الكلب... ده أنا موصي على واحد من شهر... أصل الكرسي ده زمانه اتهرى من الباشا اللي كان قبل حضرتك... أصله عدم اللامؤاخذة كان تخين شوية وكان...

- ما خلاص يا عبد الباقي هي نشرة أخبار؟ عايز كرسي تاني غير ده وخلاص.

ثم يخرج سيجارة من علبته المستوردة ويمنح عبد الباقي مثلها... فينظر لها الأمين العجوز في استحسان ويودعها جيب القميص الميري، ممنيًا نفسه بشرب أنفاسها مع كوب قهوة يصنعه بيده فوق سبرتاية زوجته الأثيرة.

- ولا مؤاخذة في السؤال يعني يا باشا...

- ممممم...

- هو حضرتك منقول هنا من المخدرات فعلا زي ما بيقولوا؟



ـ أنا اللي طلبت نقلي هنا من المخدرات.

ـ وكنت بتخدم في مكافحة الإرهاب قبل كده؟

ـ ده مفيش حاجة بتستخبى بقى!

ابتسامة خبيثة ولدت على شفتي العجوز الداكنتين... وسعلة على سبيل الاستحسان.

ـ ما حضرتك عارف إن الوزارة صغيرة ومفيش حاجة فيها بتستخبى.

ـ آه يا سيدي كنت بخدم في المكافحة وفي المخدرات... وانا اللي طلبت نقلي المباحث.

ـ بس ما تآخذنيش يا باشا... حد يسيب المخدرات والبدلات ويجي المباحث بهمها ونشفانها؟

ـ أصلي عايز أرتاح يا عبده.

ينظر له عبد الباقي في نظرة عدم تصديق فيومئ باسل برأسه... نظراته الجامدة وإجابته المقطوعة الماسخة ذكّرتا عبد الباقي بوجه مصطفى شعبان في فيلم «مافيا» الذي شاهده بالأمس على قهوة السلام في المعصرة.

ـ حاجة تانية؟

ـ آه يا باشا معلش سامحني نسيت... فيه واحد أمين جه من المديرية معاه جواب مسوجر ليك، وطلب مني أسلمه لسعادتك.

ثم أخرج من جيب قميصه خطابًا مطويا في ظرف بني... وناوله لباسل.

قلب باسل الظرف المغلق الذي كُتب اسمه عليه... ثم نظر إلى عبد الباقي بنظراته الجامدة.

ـ شكرا يا عبد الباقي... أشوفك بكرة الصبح بدري.



أفاق عبد الباقي من تأملاته في وجه الباشا المسطح... ونهض من جلسته معدلا ثيابه الميري ثم أدى التحية وخرج.

انغلق الباب وانغلقت الغرفة خلفه... وانفتح الظرف ليجد باسل في داخله ورقة واحدة كتب عليها رقم هاتف محمول.

وعلى ظهر الورقة جملة اسمية من كلمتين فقط... كلمتين تعنيان الكثير لباسل محسن عبد القادر.

«العنصر التاسع»

* * *

وأمام عينيها رأت الجماهير تقف مصفقة.

* * *

بعد البداية بسنتين

على عتبة الباب الزجاجي العملاق تقف.

في حجاب أحمر أنيق يحيط بوجهها... حقيبتها الكبيرة معلقة على كتفها... شفتاها مصبوغتان بلون داكن، وعيناها بلا أي تجميل.

تبدو كأنها تراقبني.

تقف سمر هناك... تنظر لي بنظرات تحتشد أمامها دموع ما... دموع تحبسها حتى تخلو إلى نفسها فتطلق سراحها.

يقترب منها رجل أصلع الرأس، يرتدي نظارة طبية أنيقة ومعطفًا أبيض تم كيه بعناية فوق ثياب عصرية بسيطة.

يقف بجوارها متنحنحا، فتخرج من حالة المراقبة وتعدل من طرف حجابها، ماسحة دمعة صغيرة كانت تنوي الإفلات من قضبان رموشها الطويلة.



ـ أنا آسفة يا عادل دخلت لحد هنا من غير ما أقابلك... بس كنت محتاجة أشوفه بنفسي.

ـ لا ولا يهمك... بس اللي انتي بتعمليه ده مش صح... أنا قولتلك إنك لازم تقربي شوية من المكان اللي هو قاعد فيه وتحاولي تتكلمي معاه... ده اللي هيساعده شوية إنه يخرج من الحالة دي.

ـ مش قادرة يا عادل... مش قادرة فعلا... كل ما أبص عليه وأتخيل إن أنا لو قعدت جنبه ممكن ما يكونش سامعني أو ما يردش عليّ، أو حتى ما يبصليش، بحس إني مش هعرف أمسك نفسي وهعيط وهبوظ الدنيا أكتر.

دفع نظارته بطرف إصبعه ونظر ناحيتي... أراهم يحركون شفاههم ولا أسمعهم... يتباحثون في أمر الحيوان الغريب القابع خلف زجاج الباب الكبير في حديقة مصحة نفسية... مصحة تكفلت سمر بكل مصاريفها من ميراثها الذي منحه لها المرحوم أبوها... المصاريف التي لا أملك منها إلا فتاتًا.

أجلس هناك وأنظر بعيني اللتين تغطيهما نظارات بلاستيكية خفيفة... أشعر بدوار يعصف برأسي وقنابل تلقى بجواري فلا أقوى على مقاومتها والهرب... لماذا تأخرت حقنة المهدئ؟ لماذا يجلس الطبيب هناك خلف الزجاج مع سمر يتباحثان في أمري... فلْيجلسا هنا وليتحدثا بصوت مرتفع لأسمع كل شيء ثم لا أرد على تساؤلاتهما.

سيأتي ذلك الطبيب الأصلع بعد قليل ليجلس بجواري... سيتحدث كثيرًا ويحكي لي ما دار بينهما هناك ثم سيتركني بعد أن يمل مني... مريض صدمة عصبية مدلل... فقد نطقه لأن صديقه العجوز قد قتل محروقًا بالحمض... سوف يتحاكى بحالتي مع أصدقائه على المقهى وهو ينفث دخان سيجارته الكهربية التي أراه يدخنها خلسة...



ويمصمص شفتيه استنكارا من هذا المريض الرقيع.

فليتركني لحالي ولعالمي الجميل الصامت... فقط ليمنحْني حقنة المهدئ حتى أستطيع التأمل والتركيز في عالمي الجميل.

جسد ممتلئ يقترب مني... يجلس بجواري فلا أعيره انتباهًا.

- إزيك يا أكرم... لسه برضه مش هترد عليّ؟

صوت سيف عبد الفتاح الخارج من قلب مئة كيلوجرام من الشحم واللحم... اللعنة عليك... فلتتركني لحالي قليلا.

- شكلك مش عايز ترد عليّ... عمومًا أنا مش هبقى محتاج ترد عليّ... أنا جبت معايا الشطرنج وفكرت إننا نلعب دور كده بدل القعدة المملة دي.

أوجه نظراتي تجاهه لأجده قد بدأ في رص القطع البلاستيكية فوق اللوح...

أبيض... أسود... أبيض... أسود

أشيح بوجهي عنه نحو اللوح الزجاجي... سمر هناك... يداها ترتعشان حتى أكاد أشعر برعشتهما هنا... والدموع تحتشد في عينيها.

لكني أرى خلف عينيها شيئًا جديدًا... لم تعد كما كانت... لم يعد البريق الخاطف يشع من هناك...

أرى مكانه سوادًا داكنًا... سوادًا يبتلع الضوء فلا يشعه كثقب أسود غائر.

- طب إيه رأيك في اتفاق؟ إنت تلعب معايا دور وأنا هقولك على اللي أعرفه كله.

ماذا تعني بالذي تعرفه أيها الخنزير؟



- أيوه بُصّلي كده وتفاعل معايا شوية... ما تقلقش أنا ما بضحكش عليك... أنا عارف انت هنا ليه وعشان إيه... العب معايا الدور ده بس وأنا هريحك وهقولّك على كل حاجة أعرفها.

يشير بيده إلى اللوح وبيده الأخرى يستدعيني... رص القطع البيضاء أمامه كالعادة... هو يريد دائمًا أن يبدأ بالهجوم بينما يكون الآخرون رد فعل له فقط!

ألتفت بجسدي ناحية اللوح وطرف عيني لا يزال معلقا بلوح الزجاج.

الطبيب الأصلع يقف هناك... لكن سمر لم تعد هناك.

- دورك يا كيمو... مش بيقولولك كيمو برضه؟

... ...

بعد البداية بثلاثة أشهر.

يجلس باسل منتصب الظهر... محاولا بكل ما أوتي من عزم أن يمنع ساقه اليسرى من الاهتزاز... يضع كفه اليمنى فوق اليسرى قابضًا عليها... آمرا إياها أن تكف عن دق الطاولة.

يجلس في تلك الكافيتريا/ المطعم/ الملهى... لا يقدر عقله المنظم على نظم مسمى واضح لها... لكنها بالتأكيد فاخرة للغاية... شديدة الفخامة بمنتهى التواضع والبساطة... أحجار على الحوائط وإضاءات من لا مكان وموسيقى ليست مزعجة ولا مريحة... والأهم... قهوة من أفضل ما ذاق في حياته، رغم أنها هبطت على جدار معدته كالحمض.

الحمض...

ينظر إلى الملف النائم أمامه على الطاولة الخشبية الأنيقة... الملف الذي يحتوي تفاصيل الحمض وتركيبه وطريقة تصنيعه، وتأثيره الكيماوي على الجلود والأخشاب والزجاج.



قرأ الملف خمس مرات قبل النوم، وحلم به خمس مرات بعد النوم.

كانت تنقصه قطعة في هذه اللوحة... قطعة مفقودة... واليوم هو هنا ليعرف من أين يحصل على تلك القطعة.

- ما تبصش وراك نهائي...

توترت أعصابه، وانتصبت قدماه، إلا أن الصوت باغته من جديد.

- كويس إنك ما بصيتش، وإلا ما كنتش هتشوفني تاني... كده انت نجحت في أول اختبار.

- طيب أنا مسموحلي أتكلم ولا دي كمان لأ؟

نظرة ساخرة جاءت كفلاش كاميرا على وجهه ثم اختفت.

ضحكة ساخرة رنت في أذنه.

- لو ما يهمكش أوي إن الأخ الويتر اللي قدامك يقول عليك اتجننت فا أنا ماعنديش مشكلة... بس عمومًا فيه سماعة صغيرة هتلاقيها ورا علبة المناديل اللي جنبك.

يمد يده خلف علبة المناديل الورقية ليجد سماعة بلوتوث كبيرة نوعًا ذات لون أصفر فاقع.

- ذوقك حلو في الألوان.

- ميرسي... حطها على ودنك الشمال عشان تبقى باينة للأعمى... ومد رجلك شوية وولّعلك سيجارة عشان تعرف تسمعني.

وضع السماعة على أذنه المقابلة لكل من يجلسون ويتحركون في المكان... وأشعل سيجارة زفر دفعة دخانها الأولى ملقيًا معها كل توتره.

- تمام... كده حلو أوي... بص يا سيدي... إنت طبعا وصلك الملف



اللي بعتّهولك امبارح.

- ملف إيه؟

- لا كده مش كويس يا باسل باشا... امبارح بالليل كان فيه ملف تحت دواسة الباب جنب نسخة المفتاح الاحتياطي اللي انت مخبيها هناك... الملف ده كان فيه شوية تفاصيل عن حادثة المرحوم اللوا محسن... بالتحديد عن أداة الجريمة.

- آه تقصد شوية المعادلات والجمل اللي بخط الإيد دي؟

- شوية المعادلات؟ ده إحنا جايين نهزر بقى.

الصوت ليس بقوي ولا ضعيف... لولا أنه يسمعه لقال إنه ينساب مع الموسيقى في فضاء المكان... نبرة ساخرة مختلطة ببعض المرارة... كيف عرف؟ إنه يذكّره بصوته هو شخصيًا عندما يتحدث.

- ماله بقى الملف ده؟

- الملف ده زي ما انت عارف وانا عارف عبارة عن مذكرات شخصية، وشوية ملحوظات ومعادلات بتشرح بالتفصيل الممل تصنيع حمض الهيدروفلوريك بمكونات منتشرة في السوق وعند محلات العطارة والمنظفات... الطريقة دي لسه ما اتعرفتش وما انتشرتش أوي، لأنها محتاجة مجهود ودقة شديدة جدًا في المعايير... بس فيه واحد بس قدر يحضّر الحمض بالطريقة دي وبكميات كبيرة... وضخها في شبكة مواسير إطفاء حريق في قصر في المنصورية من تسع سنين... القصر ده اقتحمته فرقة قوات خاصة كانت رايحة بأمر مباشر إنها تصفي تنظيم اسمه الكيماوي... وطبعًا الفرقة نفذت الأوامر وصفت التنظيم كله.

- إنت جبت المعلومات دي منين؟

- عيب تسألني السؤال ده يا باسل باشا... المعلومات بنجيبها من



عند بتوع المعلومات... الناس اللي بتعرف كل حاجة... تحب أكمل ولا تاخد بريك؟

أمسك باسل بسيجارة أخرى وأشعلها من القديمة التي أوشكت على الاحتضار... راسمًا قناعه الجامد الثابت فوق ملامح وجهه الوسيمة... حاكًّا أنفه وهو يقطع خيط الدخان المتصاعد بطرف إصبعه فيرسم خيالا لعلامة تعجب...

أو هكذا بدت له.

- كمل... سامعك.

- وطبعًا كلنا عارفين نهاية العملية... القصر ولع كله من جوة والفرقة اتحاصرت فيه... ومع بداية تشغيل شبكة إطفاء الحريق لنفسها... الحمض اترش زي المطر على دماغهم كلهم... وكانت النتيجة إن الفرقة كلها ماتت ما عدا اتنين ظباط اتشوت وشوشهم تمامًا، وبسبب الصدمة العصبية جالهم شلل وقعدوا في البيت... ولما الداخلية اشتغلت بكل إدارتها عشان تعرف سبب اللي حصل... وصلوا لاستنتاج مهم جدا... إن العملية دي لا يمكن تكون عملية تأمين وكر ثعالب عادية زي ما بتقولوا... مش انتم بتسموها كده؟

- كمل.

- وإن العملية دي تمت بتخطيط مسبق وبالغ الدقة... والأهم من ده إنها تمت بالتوجيه من بُعد ومن برة المقر تمامًا.

- بمعنى؟

صوته بدأ ينحبس... تنحنح فزاده احتباسًا... جرع كوب الماء كله... بينما الصوت يتردد داخله كأنه يصدر منه هو.

- بمعنى إن اللي إدّى إشارة تشغيل الفخ حد كان موجود في الوقت ده... بس ما كانش موجود قدام فرقة التنفيذ... بمعنى أصح...



التنظيم الكيماوي ما كانش متكون من تمن عناصر بس...

صوت إشعال سيجارة... قداحة تستجيب وأنفاس حارة ذات صوت تخرج من بين نفس الشفاه التي تخرج الصوت.

ـ العنصر التاسع ده هو الوحيد اللي نجا من المدبحتين... مدبحة التصفية ومدبحة الحمض... العنصر التاسع ده اختفى من كل السجلات حتى السرية... رغم إنه ظهر في كذا ملف تحريات عن التنظيم ده من سنة ٢٠٠٢ لحد ما اتصفى في آخر ٢٠٠٧... بالتحديد ليلة راس السنة... ليلة عيد ميلادك التسعتاشر يا سيادة الرائد.

إنها الذكرى من جديد... صبيحة يوم ميلاده المميز... اليوم الذي قرر فيه ربه أن الوقت قد حان، وأنه سوف يأتي إلى العالم ليملأه ضجة... قرر ربه أن حياة أبيه لا بد أن تنتهي هنا.

لكنه لا يؤمن بأن ما حدث كان فقط بسبب الأمر الإلهي.

ربما أصدر الله أمرًا إلى ملك الموت أن اقبض روح ذاك الرجل أو ذاك الفتى... لكن الله لم يصدر أمرًا لملك الموت أن يقتله بالحمض صبيحة عيد ميلاد ابنه الذكر الوحيد، ووريث أمجاده المستقبلي في أروقة وزارة الداخلية.

ـ أنا عارف إن عندك فكرة عن العنصر الهربان ده كويس... وإن بقالك خمس سنين بتدور عليه... وإن اتصالات المرحوم واتصالات عمك سيادة الوزير اشتغلت كويس أوي عشان تحركك من مكافحة الإرهاب لمكافحة المخدرات، عشان تعرف توصلّه كويس... والحقيقة أنا مش هقدر ألوم عليك... أنا حاسس بيك ومقدر اللي انت فيه.

ـ متشكر لشعورك النبيل.



قالها بصوت أراده ساخرا كبريق عينيه... فخرج مختنقًا كبريق دمعة تجمعت داخل نفس العينين.

- ورغم النبرة اللي ما عجبتنيش في كلامك... بس أنا هنا عشان أساعدك...

- وتساعدني ليه؟

- مش لازم سبب معين يا باسل باشا.

- يعني انت بقالك كام سنة بتراقبني وبتفتش ورايا وورا حادثة حصلت من تسع سنين، ولامم كل المعلومات دي ومش عايزني أعرف السبب؟ طب خليك منطقي شوية!

- المنطقية مش أسلوب حياتي يا سيادة الرائد... وبعدين هو فيه إيه في حياتنا دلوقتي منطقي؟

وجهة نظر قد لا تخلو من المنطقية!

- حاول معلش تقنع نفسك إني بساعدك... أقولّك على سبب مقنع... اعتبرني برد دين لسيادة اللوا الله يرحمه... كده عجبتك وقولتلك سبب منطقي؟

ضحكة ساخرة شبيهة بأنة ألم تصدر من صاحب الصوت... وباسل يشعر بالدهشة من ثبات جأشه... ألا يخاف أن ينهض باسل ويكيل له لكمتين ثم يجره جرا إلى قسم الشرطة؟ وساعتها سوف يكف عن السخرية ويقبل أطراف قدميه راجيًا عفوه.

- تحت الكرسي اللي انت قاعد عليه هتلاقي شوية بيانات عن راجل تقيل أوي اسمه مهران العيسوي... الراجل ده تقريبًا هو المتحكم في سوق الأدوية والعقاقير الطبية اليومين دول، غير إنه بيملك سلسلة معامل تحاليل مشهورة أوي ومستشفى استثماري، وعنده كام مخزن أدوية كده في العبور وأكتوبر... الراجل ده من عشر سنين كده كان



اتقدم ببلاغ إن فيه كميات من بعض الأدوية اتسرقت من عنده... وطبعًا ساعتها الشُرَكا بتوعه اتهموه إنه بيتاجر في الأدوية من وراهم وبيلعب بديله... وسبحان الله، بعد أسبوع بالعدد الشُرَكا الاتنين اختفوا تمامًا كأنهم اتبخروا... واستحوذ هو على نصيبهم بالبخس، وكبّر التجارة والبلية لعبت معاه... من ضمن الأدوية اللي اختفت من عنده... فيه صنفين بس هم اللي يهمونا... دوا اسمه فلوكستين أو بروزاك... وحاويات بلاستيك زي بتاعت المحاليل... الفلوكستين يا عزيزي لو ما تعرفوش فا هو...

ـ عارفه... بتاع الاكتئاب... كمل.

ـ تركيبه الكيميائي من الكربون والأكسجين والهيدروجين والنيتروجين... والعنصر الأساسي فيه... الفلور.

سيجارة أخرى تضاف إلى الرصيد... وثمالة القهوة تبل أطراف لسان باسل... بينما ساقه اليسرى قد تمردت على سيطرة أعصابه، وشرعت في الاهتزاز بشدة.

ـ في الملف اللي تحت الكرسي بتاعك فيه شوية معلومات كويسة عن مهران العيسوي وشغله... المعلومات دي هتوصلك لأول الطريق... وساعتها بس هتعرف إن العنصر التاسع موجود وما راحش في حتة... هو بس محتاج شوية تعب وشوية مجهود عشان تعرف توصلّه... آه نسيت أقولّك... تخيل يا أخي إن الفلور ده هو برضه العنصر التاسع في الجدول الدوري بتاع العناصر! عارف الجدول الدوري؟

ـ كنت أدبي.

قالها بثبات... ونظرته الجامدة مرتسمة على وجهه... وعيناه تحدقان في الحائط الحجري الأنيق... لترى هناك قطعة من الفضة معلقة فوق رأس عاشقين يهمسان إلى بعضهما بشيء ما في هدوء... ليرى فيها جسدًا ينتصب خلفه ثم يتحرك.



وهنا التفت خلفه في حدة، شاهرًا طبنجته الميري من جيبه مصوبًا إياها إلى الفراغ، بينما تصاعدت شهقة أو شهقتان، تلتهما صرخة من امرأة تجلس في طاولة مجاورة.

هرع فرد الأمن العملاق إليه مشيرا بكلتا يديه أن اهدأ... بينما هو ثابت على وضع الرماية كتمثال صب من البرونز فوق قاعدة من الموكيت الفاخر.

- اهدى لو سمحت ومفيش داعي للمشاكل.

التفت برأسه إلى فرد الأمن الضخم متفتق العضلات... ومد يده بطبنجته الميري نائمة على جنبها أمامه.

- أنا الرائد باسل محسن من مباحث المخدرات... متأسف بس حسيت إن فيه حد بيحاول يسرق حاجة من جيب الجاكت... الظاهر إنه كان بيتهيألي.

- طيب لو سمحت حضرتك نزل السلاح ده واتفضل معايا لمكتب المدير.

صوته الثابت المرتفع وسلاحه الميري الذي عاد ليقبع خلف السترة السوداء في حزامه الجلدي، أجبرا فرد الأمن أن يشير له كي يتقدم أمامه إلى الخارج... فأومأ برأسه وتناول ظرفًا كبيرا من أسفل المقعد، وضعه فوق الملف الأسود ثم حملهما وتقدم أمام الحارس الضخم.

وبينما هو يخرج من المكان الفاخر منتظرا سيارته الكيا السوداء القادمة من موقف السيارات الملحق... نظر إلى هاتفه المحمول ليجد شاشته قد أضاءت طالبًا للرد على اتصال غامض.

- معلش يا باسل باشا ما سلمتش عليك قبل ما امشي... بس ملحوقة... أكيد هنتقابل تاني... بالمناسبة انت نسيت ولاعتك



عالترابيزة فوق... أنا كنت ناوي أرجعهالك بس قولت أهي تذكار منك برضه لحد ما نتقابل... أشوفك على خير.

ثم أغلق الخط... بينما باسل يبحث عن قداحته ليشعل سيجارته التاسعة...

إلا أن القداحة لم تكن هناك...

كان هناك ورقة بيضاء كتب عليها بخط نسخ يدوي أنيق

«العنصر التاسع»

... ...

بعد البداية بسنة

- إيه رأيك؟ مش تقريبًا قربت من الحقيقة ولا لأ؟ العسكري ده مش هيعدي من هنا.

ثم ضرب طرف البيدق الأسود بذيل فيله الأبيض ضاحكًا مقهقهًا كمراهق في الثالثة عشرة... بينما عيناي مثبتتان على مقدمة رأسه بلا كلمة.

- إيه يا أكرم... دورك، مش هتلعب!

يداي إلى جواري لا تتحركان ونظرات عيني تخترقان عينيه الكسولتين... لو أن لساني يتحرر من فمي لسببته بأقذع ما يتصور من شتائم.

- مستغرب إني عرفت ورسمتلك المشهد زي ما حصل بالظبط... دي موهبة بقى يا صاحبي.

ثم أمسك يدي ووضعها فوق الوزير الأسود، وحركه بزاوية ميل إلى أحد المربعات أمام جيشه الأبيض.

- في الحركة دي أنا... قصدي إنت مش هتضحي بالوزير وبس... لا



ده انت هتحسسني إنك خلاص بتقع وإن هجمتك دي كانت غلط في غلط... وهتديني إحساس بإني ماسك زمام المبادرة وأنا اللي بتحرك ومسيطر.

ثم ضغط يدي ونظر إلى عيني قائلا في جمود:

- نفس اللي باسل كان مقتنع بيه بالظبط يا أكرم.

... ...

بعد البداية بستة أشهر

يجلس باسل داخل سيارته الكيا السوداء... مرتديًا نظارته الشمسية الأنيقة... سيجارته ذات الأصول الأمريكية محشورة بين شفتيه الجافتين، وكوب الاسبريسو الورقي يتبادل معها اغتصاب نضارة شفتيه وتحويلهما إلى قطع قماش سوداء نظفت بها ألف سيارة متسخة.

هاتفه المحمول معلق على حامل بلاستيكي ثبت في تابلوه السيارة... ينظر له بين الحين والآخر بطرف عينيه من وراء حجاب النظارة، ثم يعود إلى قهوته وسيجارته.

رقم يظهر على الشاشة... وصوت احتكاك الهاتف الناتج من اهتزازاته يبدو أقوى من صوت أي رنة كانت ستدق أذنه.

- إزيك.

- أهلا يا باسل باشا... إنت عرفتني بسرعة أهو.

- ما انت باعتلي الرقم جوه ظرف بني مقفول مع عسكري من المديرية... ده أنا بدأت أشك فيك... إنت أمن دولة ولا إيه؟

- تقصد أمن وطني يا باشا... اسمه بقى أمن وطني.

ابتسامة ساخرة وجدت طريقها إلى الشفاه السوداء ثم سقطت في هوة



فمه.

- اسمه أمن الدولة... وبعدين ده مش موضوعنا.. خير، عندك جديد؟

- إنت اللي عندك الجديد يا سيادة الرائد.

- أنا نفذت اللي اتفقنا عليه بالحرف... قدمت طلب النقل وحركته باتصالاتي وأديني في قسم المعادي أهو.. وبعدين؟

- عارف يا باشا... كان فيه ظابط طيب وغلبان قبلك في القسم، كان بيقول جملة جميلة أوي... أعظم خطة في الوجود هي إنك تبقى بلا خطة... الراجل ده كان عظيم والله.

- أو كان عبيط... مفيش حاجة في الدنيا بتمشي من غير تخطيط يا... إلا انت اسمك إيه؟

صمت الصوت دقائق كأنها أيام... باسل ينظر إلى شاشة الهاتف... لولا أن الثواني تتحرك وصوت أنفاس ذلك الشخص يخترق أذنه المرهفة لظن أنه ذهب، أو أن شركات المحمول تمارس لعبتها المعتادة في قطع المكالمات من منتصفها.

- اسمي هتعرفه في يوم من الأيام أكيد... بس خلينا في المهم دلوقتي.

- هو فيه حاجة أهم أنا عايز أعرفها الحقيقة.

- عايز تعرف أنا بساعدك ليه برضه، مش كده؟

- ياريت لو مفيش عندك مانع.

صمت جديد... صمت تسارعت فيه الأنفاس... يكاد باسل أن يجزم بأن هذا الشخص يبكي... لكن أذنه الحساسة المدربة لم تميز صوت الأنات بعد... ربما كان يبكي صامتًا مثلما يتنفس صامتًا.



ـ اعتبرني بساعد نفسي قبل ما بساعدك.

هرب الوغد من جديد.

ـ المهم إنك دلوقتي قربت تخلص الطريق يا باشا... اعتبر نفسك عديت البوابات... بص حواليك كويس بس وانت هتعرف تمشي إزاي عشان توصل.

ـ وطبعا تحديد قسم المعادي بالذات مش صدفة؟

ـ كلك نظر يا سيادة الرائد... يلا هكلمك تاني.

ومن دون حرف إضافي كان الخط قد أغلق وانطفأ الضوء من شاشة الهاتف.

ـ يا ابن الكلب...

انتزع باسل الهاتف من الحامل البلاستيكي، وطلب رقمًا يحفظه عن ظهر قلب بلا بحث في قوائم اتصاله، وعندما أجاب الصوت...

ـ إيه يا علاء... جبته ولا لسه؟

ـ كان فاضلّنا نص دقيقة كمان ونجيبه... ما كنتش قادر تطول معاه شوية؟

أغلق باسل الخط وألقى بالهاتف فوق المقعد المجاور له... دمه يغلي في عروقه، وأنفاسه تحرق أصابعه الملتفة فوق غطاء مقود السيارة الجلدي.

يعرف أن صاحب الصوت العابث لا يساعده لوجه الله... هناك ما يربط هذا بذاك... ربما كان منافسًا له في سوق الإرهاب، أو صديقًا سابقًا غدر به، أو ربما كان ضحية أخرى... ضحية تشبهه... ذبحت بسكين باردة فراحت ترفس بقوائمها للحصول على روح جزارها، لكنها لا تميز الجزار من المتفرجين.



لا عدالة هنا... سوف تطيح الذبيحة بالجزار وبمن يقف حولها... من قال لهم إن المشاهدة مجانية ولا خطر منها فليحمهم مما سوف يجدونه أمامهم.

أدار محرك سيارته والهاتف ينفذ أمرًا بالاتصال.

- أيوه يا عبد الباقي... أنا عايز كل المعلومات اللي تقدر عليها عن التلات أسامي اللي هملّيهملك دلوقتي... ما اعرفش عايشين في دايرة القسم ولا لأ يا عبد الباقي، وده اللي أنا عايز أعرفه منك... نزّل مخبرينك ولِمّ مرشدينك وتغطس وتطلع بكل حاجة عنهم... اتصرف يا عبد الباقي دي مش قصتي... الأسامي التلاتة... رجب فوزي عطية... أحمد علي البندري... خالد عوض مصطفى... أرقامهم القومية من الشمال لليمين... ٢٨... اكتب عشان ما تنساش

... ...

بعد البداية بسنة

- شوية مقاومة بيزودوا الحماس شوية.

ثم حرك سيف قطعة من جيشه الأبيض، فطارت قطعة من الجيش الأسود خارج اللوح.

- اللي أنا عملته ده اسمه بالبلدي الفلفصة... والفلفصة يا سيدي الفاضل بتخلي اللي قدامك يفتكر إنك بتقاومه... بس مقاومة العاجز الذليل... وده يديله إحساس أكتر بالعظمة والقوة ويخليه يتهور ويهاجم بكل قوته... تاخد سيجارة صحيح؟

يده الممدودة بسيجارة أجنبية النوع... وعيناي تحدقان فيها ثم في وجهه الذي تبدو أمارات الخبث على كل قسماته الممتلئة.

أمد يدي دافعًا يده برفق شاكرًا... إلا أنه يدسها في يدي...



ـ ولع يا أكرم أنا عارف إنك لسه بتشرب... تحب تعرف عرفت منين؟

أشير بيدي حاميًا نفسي من استرساله الهولمزي المعتاد، فيطلق من ثنايا دهونه المتراكمة ضحكة مجلجلة وهو يشعل السيجارة المستقرة بين شفتي بقداحة أعرفها جيدًا... أعرفها تمام المعرفة.

ـ بتشبّه عالولاعة... صح؟ معلش أصل أنا لقيتها واقعة عالأرض جنب باب أوضتك... الظاهر جيب البنطلون الخفيف ده صغير عليها... بس لطيفة أوي الولاعة اللي عليها حرف B... إنت فيه حد عزيز عليك أوي أول حرف من اسمه B؟

أشيح بوجهي، بينما ضحكته الجذلة الساخرة وقهقهته المزعجة تحطمان بمعاول من صُلب جدار عالمي الهادئ المستكين.

أربّع ساقيّ وأغلق عينيّ فاردًا ذراعي فوق ركبتي... أريد بعضًا من الهدوء والسلام.

ـ يوجا... عارف يا أكرم... من زمان نفسي أجرب اليوجا... استنى لما أحاول أربّع أنا كمان ولو انه مستحيل... يا ساتر... لا مش هقدر أنا آسف... الموضوع مرهق أوي... كنا بنقول إيه... آه كنا بنتكلم عن الفلفصة.

صوته الرخيم يخترق عالمي... يكبل يديّ وقدميّ ويمزق اللاصق الخفي الذي زرعته فوق فمي حتى لا أتحدث إليهم من جديد... اليوم سوف أكتب كل هذا حتى تتخلص روحي منه... من المبادئ التسعة... أفرغ ما في روحك حتى تفسح مكانًا لنفسك بها... المكان الهادئ أشبه بشقة هادئة خالية من الأثاث... يمنحك الراحة بدلا من الشقق المزدحمة بالأثاث الضخم مثل...

ـ النيش... الظاهر إن الخناقة كانت على النيش... بس هو دلوقتي أحسن كتير... بقاله معانا هنا ست شهور والحمد لله بطل كلام عنها وعن أهلها خالص.



عن ماذا يتحدث هذا المعتوه؟

- المهم خلينا في موضوعنا... لما باسل قرب قوي من الهدف... وضرب ضربته... ورسم خطته المحكمة عشان الموضوع يموت وما يصحاش تاني... كان فاكر إن الملك كده خلاص اتزنق واتحاصر وقالّه بمنتهى الاطمئنان... كش ملك... بس الحقيقة ما عملش حساب حاجة مهمة أوي... إن فيه عسكري صغير وصل لخط النهاية من الطرف ونزل المعركة تاني وهو لابس لبس الوزير... وإن فيه عسكري تاني وصل ونزل لابس لبس طابية... وإن الملك بتاعه هو اللي بقى مزنوق دلوقتي ولازم يرجع يدافع عنه... ولما وصل كان الأوان فات والملك على وشك يتخنق... فراح عامل إيه؟

اصمت يا هذا وكف عن اختراق عقلي... اذهب للجحيم أنت ولوحك وقطعك وفلسفتك اللزجة كقطع من قنديل بحر ميت... اذهب إلى مكان آخر وكف عن الاقتراب مني.

- راح مموت الملك بتاعه بنفسه... خنقه بالقطع بتاعته لحد ما مات... بس قبل ما يخنقه كان خلّص على كام قطعة في الطريق... موّت الحصان النطاط... حرق الفيل العجوز... وخلى الطابية مشلولة مش عارفة تتحرك... كل ده عشان الفلفصة... لما اتحول هو لضحية قعد يفلفص يفلفص لحد ما خلّص على الكل... هو مشكلته كلها إنه نسي إن اللي حطه في الخندق ده هو العسكري اللي قلب وزير... أو بصراحة كده... اللي كان وزير متخفي في زي عسكري.

أفتح عيني وأنوي النهوض... أنتصب قائمًا وألتفت ناحية اللوح الزجاجي... أين ذلك الطبيب؟ لماذا يتركني فريسة لهذا المعتوه الثرثار؟

- اقعد يا أكرم... أنا عارف كل حاجة انت عملتها عملتها إزاي



وليه... إزاي وصلت لباسل عشان تضرب مهران العيسوي وما عرفتش... وإزاي حركته عشان يوصل لخالد... أو تخليه يفتكر إن خالد كان هربان وهو وصلّه... إزاي لففته على المخدرات والمباحث وفتحت قدامه الأبواب باب باب بالمقاس عشان ما يشوفش غير اللي انت عايزه يشوفه... اقعد يا أكرم واسمعني عشان أنا ما بحبش أكرر كلامي مرتين.

أجلسُ منتصب القامة محدقًا في الواجهة الزجاجية البعيدة... لماذا تبدو بعيدة جدًا؟ سأبقى منتصب القامة متجاهلاً النظر في وجهه المترهل وعينيه الرماديتين الباردتين... لا لن أنكس رأسي أمامه الآن... لو منحته شعورًا بالانتصار لما توقف عن الكلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها!

ـ من ساعة ما جيت عندي هنا من كام شهر وأنا شاكك إن فيه حاجة... المشكلة إنك كنت بتعمل زيه بالظبط... بتدور على حد انت عارف كويس أوي إنك لو ضحكت عليه، وخليته يفكر في الحاجة من وجهة نظرك انت ويحلها، هيوصل للي انت عايزه يوصلّه... وزي ما هو راح لأحمد علام ـ الله يرحمه ـ إنت جيت عندي أنا... بس زي ما هو ما كانش متوقع إن فيه عسكري هيقلب وزير... إنت بخست حق الوزير يا أكرم... عاملته على إنه عسكري هتقرطسه وتتخلص منه مع أول نقلة... وعشان كده أنا بعتّك لمرعي... رغم إنك كنت ولد وحش وكدبت عليّ وعملت إنك مش عارفه وانت بتسجل النمرة... ببساطة النمرة معاك من الأول يا كيمو... إنت صوابعك ما لمستش رقمين من الأرقام اللي مليّتهالك...

* * *

بعد البداية بعشرة أشهر

ـ خير يا هندسة.



ـ كل خير إن شاء الله... طبعا عماد باشا إداك فكرة أنا عايزك ليه.

ـ معلوم.

أتى الفتى بالشيشة فصمتُّ مانحًا إياه نظرة أعادت لساني إلى حلقي... ثم سحب بعض الأنفاس المتمرسة من مبسم الشيشة متابعًا.

ـ عماد باشا إداني كل التفاصيل.

ـ طيب جميل... ويا ترى رأيك إيه؟

ـ أنا ما بقولش آراء يا هندسة... أنا راجل بتاع شغل ومش فاضي... المطلوب إيه؟ وهيكون عندك حسب ما تحب.

ـ أظن عماد إداك فكرة عن المطلوب.

ـ برضه أحب أسمع منك انت.

أشعلت سيجارة أخرى وأنا أهش ناموسة لم تتعلم من صديقتها، فاقتحمت رقبتي طالبة بعض الدماء.

ـ خالد عوض مصطفى... مهران العيسوي... مصنع الأدوية... مستشفى مهران الدولي... شركة فارما وورلد.

ـ إنت بتحل كلمات متقاطعة ولا إيه يا هندسة؟

ـ لأ الكلمات المتقاطعة انت اللي هتحلها يا برنس... أستأذن أنا بقى... لما توصل للحل ابعتهولي.

أومأ برأسه ومبسم الشيشة لا يغادر فمه... ثم نفث سحابة دخان طردت كل عائلات الناموس المحيطة بنا، بينما أخرج بعض جنيهات لأنقدها لصبي القهوة.

ـ اتكل على الله الحساب عندي.



ـ لأ خليها المرة الجاية.

ـ لا والله... وبعدين أصل أنا لسه قاعد شوية... عندي ميتينج.

قالها مفخمًا حروفها مضيعًا كل مخرج لكل لفظ فيها يمت إلى الإنجليزية بصلة... فابتسمت ساخرًا ثم لوحت له بيدي راحلاً.

وبينما أنا أبحث عن خطواتي بين الحجارة المتراصة فوق بالوعة مجارٍ أخرى، تذكرت أن شيئا ما قد فات عليّ.

ـ معقولة... ليه لأ؟

وبينما أحاول إقناع نفسي بما خطر على رأسي من أفكار... كان رنين الهاتف يعوي بمن خطر على بالي حينها.

مكالمة دولية تأتي من عماد، في الوقت الذي كنت أنوي فيه دفع مبلغ ضخم من عشرة جنيهات كي أستطيع أن أطلب منه الاتصال بي على هاتفي... ببساطة لأن عماد لا يملك أي وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي.

ـ ابن حلال والله.

ـ طول عمري يا واطي... بقالك قد إيه ما عبرتنيش يا روح أمك.

ـ الله يرحمها هي الغلطانة عشان خلفتني وسابتني أعرف واحد زيك... عامل إيه في الدوحة؟

ـ بخير يا أخويا... إيه كنت عايز إيه؟

ـ كنت عايزك في موضوع مهم، بس التليفون هيخلص رصيد قبل ما نوصل لنصه.

ـ بسيطة... عملولي البتاع اللي اسمه سكاي ده في الشركة.

أطلق ضحكة عالية فتلتفت لي سيدة من قاطنات الشرفات المعدنية المخالفة ـ علامة المساكن الشعبية ـ ثم تبصق فوق الأرض المتربة.



- اسمه سكايب يا أبو جهل.

- أيًا كان اسمه... هبعتلك رسالة فيها اليوزر وتعملّي إضافة ونتكلم فيديو بالليل.

- وهتشحنلي كارت بعشرين ولا إيه؟

- يلا ياض يا وسخ من هنا... هستناك الساعة ١٠ بتوقيت القاهرة أكون خلصت شغل... يلا سلام.

أغلق الخط والبسمة لا تفارق وجهي... عماد... الرجل الذي إذا أردنا تعريفًا له في المعجم لوجدناه ببساطة تحت عنوان واضح.

«أخ لم تلده أمك».

بينما على الجانب الآخر... تنحنح مرعي وبصق بصقة ضخمة فوق الأرض المتربة... وقال مخاطبًا من يحدثه في الهاتف.

- أيوه يا باشا... هبعتلك الحاجة على المنتجع في سويسرا... آه سأل عن خالد عوض مصطفى وعن مهران العيسوي... أريحه... عينيا يا باشا... إنت تؤمر... في حفظ الله... في حفظ الله.

ثم أغلق الخط وهو يسحب نفسًا عملاقا ككف يده من الشيشة... ثم راح يسعل بلا توقف ومن بين كلماته.

- هات الحساب يا ولا.

* * *

بعد البداية بسنة

لماذا لا أجد سجائري في جيبي؟ أين تركتها صباحًا؟ ربما أخذها مني كما أخذ القداحة وراح يمنحني منها كأنها له.

- ودي كانت غلطتك الأولى والأخيرة... مرعي يا أكرم ما يعرفش



معنى كلمة إخلاص أو ولاء... مع شديد احترامي للمرحومة يعني... مش المرحومة كان اسمها ولاء برضه؟

أمد يدي نحو علبة سجائره النائمة بجواري على المقعد الخشبي الواسع.. سيجارة تستقر بين شفتي لكن يديّ لا تستقران كي أشعلها... يده المكتنزة تمسك بالقداحة وتشعل السيجارة.

ـ الله يرحمها هي اللي اتظلمت في كل ده... كان لازم تاخد بالك منها شوية أكتر يا أكرم... كان ممكن تلاقي ألف مكان تروحه غير الزريبة بتاعت مهران العيسوي... كان ممكن توديها عند حد بيفهم ويعرف يشخص العلاج الكيماوي الصح... مش حد يجرب فيها عقار مخدش ترخيص لسه يخلص عليها ويهدم خلايا جسمها... لأ والغريبة إنه خلاك توقع على إقرار بالموافقة على التجربة... شوف إزاي يا جدع مهما كان البني آدم ذكي وحريص برضه ممكن يقع... وفي الآخر خدت إيه؟ رمالك قرشين عشان يسكتك بيهم وانت سكتّ.

أشعل سيجارة لنفسه وجلس واضعًا قدمه فوق ركبته... ساق فوق ساق لكن السيقان الممتلئة لا تتلاقى... وخلايا مخي تحترق مع كل نفس يمتصه من سيجارته...

كأنه يدخن مخي بدل تبغه.

ـ بس هو ما كانش عارف إنك مش هتسكت... وإنك هترسم وتخطط وتتحرك كويس أوي... قلبت الدنيا من فوقها لتحتها عشان تمسك له مَلكة... ولما لقيت خالد قدامك... قولت ليه ما اخدش الاتنين بخبطة واحدة... خالد اللي ركّب وابتكر ومهران اللي بيقبض... الاتنين ما يجوش في خبطة واحدة... لكن الصدفة بس هي اللي وقعتك في مريم... مكالمة أمها ليك يومها وطلبها إنك تحاول توصل لحل في موضوع موتها... أداءك المبهر وانت بترفض تساعدها، وإنك ما بقتش مهتم بصحافة الحوادث ولا بدور المحقق



كونان العجيب... ودعبستك وراها بعد كده لحد ما وصلت لعلاقتها بخالد... وهنا بس اللمبة نورت... والخطة الصح اترسمت بمعلمة.

ألتفت نحوه... مقاومة عقلي المتآكل بدأت تتهاوى، وعيناي لا تميزان من معالم وجهه سوى عينيه الباردتين الشبيهتين بعيني أبي... كان أبي إذا أراد استجوابي يُجلسني بجانبه أمام كوب الشاي الساخن، ويجحدني بنظراته الباردة حتى أقر بكل ما اقترفته من ذنب.

أنت لا تعرف شيئا يا سيف... أنت تعرف فقط ما قصصته عليك وما استنتجته أنت... صدقني أنت لا تعرف شيئًا.

- وفضلت قاعد من بعيد تراقب الملك وهو بيسيطر وبيحرك الدنيا... واديته اللذة اللي انت عايزه يحس بيها... بدأت تتخبط وتفلفص انت وكل الجيش اللي معاك... وهو بيسيطر أكتر وبيحبس فيكم أكتر... لحد ما لحظة وصولك ليّ جت... لحد ما حكيتلي على مهران العيسوي وعلى باسل محسن... لحد ما بعتّك لمرعي عشان أعمل فيك بالظبط نفس اللي عملته في باسل... لازم تحس إنك انت اللي بيحرك اللعب... لازم تطمن وتآمن وتكمل لحد ما تخلص المهمة الأخيرة... المهمة اللي بعدها هتقفل بُقك وعينك... وتنعزل في هدوء جوة قوقعة سلامك النفسي... العنصر التاسع في الشاكارا يا أكرم... ما تقولش إنك ما تعرفش الشاكارا وعناصرها التسعة... هم كانوا بيقولوا سبعة بس... لكن فيه عنصر تامن وعنصر تاسع مهم أوي.

وأشار بإصبعه إلى السماء فوق رأسه... نحو النقطة التي أعرفها ويعرفها، والتي ظننت أني أقبع فيها الآن.

- ومين عارف... ما يمكن بعد سنة ولا اتنين ولا عشرة تخرج منها... ويمكن لأ... بس انت دلوقتي بس خِلِصت... خِلِصت وخَلَّصت في طريقك على الكل... بس سيبك وإيه يعني... إيه يعني



أحمد علام مات؟ إيه يعني لما تعزل نفسك بنفسك وتخسر حريتك وحياتك؟ الأخطاء التحكيمية جزء لا يتجزأ من متعة اللعبة يا كيمو.

قالها مقلدًا طريقة مدحت شلبي الشهيرة في التعليق... وألقى بالسيجارة إلى جواره ونهض... واضعًا كفيه في جيب السترة الرياضية التي يرتديها... متنحنحًا في هدوء... ملاكم بارع أجهز على خصمه بالضربة القاضية... فقط لم يفته أن يميل على خصمه الساقط فوق أرض الحلبة كدجاجة مذبوحة، هامسًا في أذنه بكلماته الأخيرة.

ـ طبعا انت عايز تعرف أنا مش هتكلم ليه ومش هقول الكلام ده لحد تاني ليه.

الخصم المهزوم ينظر من خلف جفنه المنتفخ وكرامته المهدرة... ينظر إلى الوجه المستدير والرأس الأصلع والعينين الباردتين... ستتركني هنا كي تتسلى بهزيمتي كل يوم!

ـ أصل القعدة هنا من غيرك كانت مملة أوي يا أكرم... وأنا معنديش استعداد أقضي كام سنة هنا لوحدي... وبصراحة اللي انت عملته عجبني... أنا حاسس بيك ومقدر اللي انت فيه.

ابتسامة ساخرة ارتسمت على وجهه المستدير، قابلتها ابتسامة أخرى على ركن فمي... ابتسامة كنت نسيتها أو تناسيتها.

تمامًا كتلك الحروف التي خرجت من فمي ولم تعد.

ـ متشكر لشعورك النبيل.

الملاكم الفائز يرفع رأسه الضخم ويطلق ضحكاته المقهقهة مربتًا على كتفي وراحلا إلى ما لا أعرفه.

وأنا أنظر إلى الباب الزجاجي... صامتًا.

لربما أصحو من كل هذا لأرى وجهي أنا هناك...



خلف الزجاج.

... ...

أكرم فهمي

القاهرة



شكر خاص وتقدير

شكر لكل من آمنوا بي وكانوا لي سندًا وعونًا وإلهامًا لي في رحلتي... ولو حتى بالتشجيع.

أحمد عبد المجيد

عادل عجواني

محمد صادق

محمد فؤاد

أحمد القاضي

محمود توفيق

سمر أحمد

مجموعة نادي كتاب قطر الإلكترونية

كل من هو مسؤول عن دار الرواق للنشر والتوزيع

وأولهم/ **هاني عبد الله** (الرجل الذي رأى أن ما أكتبه يستحق النشر).

إلى عائلتي... عنصري التاسع الذي وجدته.

وإلى كل قارئ قرأ لي سطرًا... أو ابتاع لي رواية من قوت يومه.

أقول لهم: لا تتركوا الرواية الآن قبل أن تقلبوا الصفحة.



حاشية لا بد منها

(رسالة بريد إلكتروني من أكرم فهمي إلى ميسرة الدندراوي)

عزيزي ميسره

بلا تحية

لقد مللت

أعرف أنك تعشق المقدمات والتمهيدات، ولذلك لن أترك لك الفرصة.

سوف أكون حادًا وقاطعًا وفي صلب الموضوع.

لقد مللت.

أعرف أنك قصصت حكاياتي للناس بكل أمانة، وأنك نقلتها عني كما حكيتها لك بكل صدق -بصرف النظر عن صياغتك الأدبية التي لا تعجبني - إلا أنك كنت أمينا كما يفترض بك،

لقد مللت.

في البداية كانت اللعبة مثيرة ومتكافئة... أنا أحكي وأنت تكتب ونتفق على ما ينشر وما لا ينشر... الكل سعيد والكل يحب اللعبة.

إلا أنك خرقت القواعد ولم تستمع لصوت العقل... أخبرت الجميع بالحقيقة التي خبأتها لعام كامل... لا تسألني كيف عرفت أنك ستخبر الجميع بها... لا تستهن بذكائي يا عزيزي.

أكتب لك لأخبرك فقط أنني مللت... وأن اللعبة لم تعد تستهويني، وأنني سأختفي من عالمك الكريه إلى الأبد.

لذا فدُم كما أنت بخير أو بلا خير.

وتذكر أنني أحتاج إلى الراحة التامة، وإلى ما يهون عليّ صدمتي كما



قال صديقك الأصلع ذو الابتسامة الغامضة (عادل).

الوداع وإلى الأبد.

ملحوظة: تعازيّ الحارة في وفاة أبيك... لولا أن صديقك عادل أحكم الخناق عليّ ربما كنت سأزورك لأعزيك بنفسي.

أكرم فهمي

في مكان ما.



(رسالة بريد إلكتروني من ميسره الدندراوي إلى أكرم فهمي)

عزيزي أكرم

لا أعرف إن كنت ستقرأ هذا أم لا

لكني أرد لك تحيتك بما هو أفضل منها

لا أدري لمَ أنت ساخط وغاضب! ولا أتخيل أي سبب قد يقودك إلى ما تنوي فعله.

إذا كنت أنا أمينًا وصادقًا فيما نقلته عنك فأين المشكلة؟

ولنكن واقعيين... منذ البداية واللعبة استهوتك وقبلت بها... فلتكن ناضجًا وعاقلا ولا تعبث معي عبث الأطفال هذا.

اللعبة يا عزيزي كأي شيء في هذه الحياة... له مميزاته وله عيوبه... ولا يصح أن تقبل بالمميزات وترفض العيوب.

ولتعلم أنني لم أخرق أي اتفاقات، لأنها ببساطة لعبة بقواعدي أنا، وأنت مجبر على اتباعها... قد فات زمن الاختيار يا عزيزي... فلقد سبق أن اخترت اللعب... وأنا لم أفعل سوى ما اتفقنا عليه... أضع بين السطور كلماتي وحكاياتي كي أصنع من عالمك السخيف عالمًا يحبه من يقرأ هذه الكلمات.

لذا فوداعك النهائي ومللك لن يصنعا أي فارق.

الاسم أصبح ملكا لي... أصنع به ما أشاء.

إلا أني - حفاظًا على الأواصر والروابط بيننا - سوف أعلن ذهابك بلا رجعة.

قرار قد يُعجب الكثيرين وقد لا يعجب الكثيرين... لكني لن أغيره، على الأقل في وقتنا هذا، ربما مستقبلا...

إنه قراري، وأنا فقط المسؤول عنه.



ردًا على ملحوظتك: أشكرك على تعازيك... ربما كان من الواجب أن ترسل بتلغراف على الأقل، ولا أعتقد أن عادل كان سيمانع.

ميسره الدندراوي

القاهرة



إلى الباحثين عن العنصر التاسع

واصلوا البحث

